الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

علي بن الجهم[١]

يرجع نسب علي بن الجم إلى بني سامة بن لؤي القرشيين، وقد نزل أحد أجداده مدينة مرو بخراسان واستوطن هذا البلد النائي مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا. وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم في إحدى مدائحه للمتوكل، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلاً[٢]:

مذهبي واضح وأصلي خراسا ن وعزي بعزكم موصول

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلباً للرزق وشغل بعض الوظائف في الدولة. ويفتح له المأمون أبوابه، ويوليه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولى في عهد الواثق شرطة بغداد[٣] وفي ديوان أبي تمام أشعار في أخيه عثمان وابنه إدريس، مما يدل- من بعض الوجوه- على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة. ولا تعرف بالضبط السنة التي أنجب فيها الجهم ابنه عليا، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه؛ ونراه في نعومة أظفاره يختلف من داره في شارع دجيل إلى كتاب الحي

---

[١] أن على بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٠٣/١٠ ومعجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان في على وتاريخ بغداد ٣٦٧/١١ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة في سنة ٢٤٩ والموشح للمرزباني ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلي ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه في المجمع العلمي العربي بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة.

[٢] الديوان ص ٢٦.

[٣] تاريخ بغداد ٢٤٠/٧.

كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثاً مجتمعين، ولفتته ذات يوم بنية صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها في بعض الألواح[١]:

ماذا تقولين فيمن شفه سهر من جهد حبك حتى صار حيرانا

وسرعان ما أجابته البنية في نفس اللوح على البديهة:

إذا رأينا محباً قد اضر به جهد الصبابة أو لياه إحساناً

وفي بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه، وكأن هذه البنية هي التي ألهمته الشعر وأنطقته. وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغباً وعبثاً ولعباً، فسال معلمه في الكتاب أن يحبسه تأديباً له، وأجابه المعلم إلى حبسه، فاغتاظ على من أبيه غيظاً شديداً، ولم يلبث أن كتب إلى أمه في شق لوح مستغيثاً[٢]:

يا أمتا أفديك من أم أشكو إليك فظاظة الجهم

قد سرح الصبيان كلهم وبقيت محصوراً بلا جرم

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاصاً بما سيصير إليه من حدة لسانه التي سيصلى فيما بعد نارها. والحادثتان كلتاهما تدل على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة، فإنه لم يكد ينهي دروسه في الكتاب حتى كان قد اصبح شاعراً ينظم الشعر في يسر. وكانوا يتعلمون في الكتاب شيئاً من علم الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث النبوية. ولا ريب في أنه كان يغدو يروح بعد ذلك مع الشباب إلى حلقات العلماء المتكلمين في المساجد ينهل منها، وربما أطلع على شيء من علوم الأوائل صنيع لداته في عصره. وكانت في المسجد الجامع حلقة كثيراً ما اختلف إليها وكثيراً ما اجتذبته ،ونقصد حلقة الشعراء إذ "كانوا يجتمعون كل جمعة في القبة المعروفة بهم في جامع بغداد، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة السابقة". وفي هذه الحلقة تعرف على كثير من شعراء عصره وفي مقدمتهم أبو تمام الذي أصفاه وده وصور ذلك تصويراً رائعاً في شعره بمثل قوله[٣]:

إن يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد

أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

---

[١] الديوان ص ١٨٤.

[٢] الديوان ص ١٨٠ والجرم: الذنب .

[٣] ديوان أبي تمام ٤٠٧/١.

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعاً حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له في الصعود، وإذا هو يصبح من مداح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه، ويعجب به، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق(١). ويفد على الواثق يمدحه، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزور عنه، ويبدو أنه عزله عن عمله، غذ نراه يصب عليه جام غضبه(٢). وفي هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان، مؤتسياً في ذلك بصديقه أبي تمام، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة، فيعزى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حاراً.

وتقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه، ويتخذه جليساً ونديماً، ويسر إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظياته من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز، ويغدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروي الرواة أنه دخل عليه يوماً وبيده درتان نفيستان يقلبهما تعجباً واستحساناً، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدرتين، وكانت في يمينه، والأخرى لا تزال في يساره، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة:

بسر من را إمام عدل ... تغرف من بحره البحار

الملك فيه وفي بنيه ... ما اختلف الليل والنهار

يرجى ويخشى لكل أمر ... كأنه جنة ونار

يداه في الجود ضرتان ... عليه كلتاهما تغار

لم تأت منه اليمين شيئاً ... إلا أتت مثله اليسار

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية(٣). وقد يكون في منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر. ونراه يتحول منذ اليوم الأول في خلافته داعية كبيراً من دعاته، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعو له إن احتاج إلى دعوة، بل إنه ليبالغ في الدعوة له مبالغة مفرطة. وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به في أشعاره ويشيد إشادة بعيدة، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتاب والعمال رأيناه يسقط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد. وكأن أول عمل عام نهض به المتوكل وقفه محنة القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة، وعنفوا بالفقهاء المنكرين لذلك

---

(١) أغاني ٢١٠/١٠.

(٢) الديوان ص ١١٨.

(٣) الديوان ص ١٣٦ وانظر العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٣٢١/١.

وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً، حتى إذا ولي المتوكل وقف هذه المحنة التي أوشكت أن تؤدي إلى فتنة خطيرة، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يغرون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة. ولا يزال ابن الجهم يشيد بهذا الصنيع، ذغ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدي إلى شر خطير، ونراه في أثناء ذلك يكيل هجاء ذميماً للمعتزلة، حتى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله[1]:

قام وأهل الأرض في رجفة ... يخبط فيها المقبل المدبر

في فتنة عمياء لا نارها ... تخبو ولا موقدها يفتر

فقال والألسن مقبوضة ... ليبلغ الغائب من يحضر

إني توكلت على الله لا ... اشرك بالله ولا أكفر

لا أدعى القدرة من دون ... بالله حولي وبه اقدر

وابن الجهم يزعم في الأبيات أن القول بأن، القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدي بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله، وقد مضى ينفي عن المتوكل القول بحرية الإرادة وأن الإنسان يصرف أفعاله كما تشاء له قدرته، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة، فهو سني يأخذ بأقوال أهل السنة، وبأن كل شيء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة. ونراه في نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى في الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة. وكل ذلك زلل منه، وكان حريا به ألا يرسل لسانه في المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم، أو على الأقل ألا يصمهم بوصمات الردة والشرك والكفر، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الدعاية للمتوكل وأعماله المحامي عنه أمام خصومه، فبالغ وتورط في مبالغته أكثر مما ينبغي.

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل غذ كان شديد الانحراف عن علي بن أبي طالب وآله، ومر بنا في غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف غذ أمر في سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يحرث موضع القبر ويزرع ما حواليه، ونرى ابن الجهم منذ ولي المتوكل الخلافة يبدئ ويعيد في أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة. وحقاً بدأ ذلك عنده في مدائحه للمعتصم، ولكنه أصبح الآن نغماً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل، فبيته أحق من البيت العلوي

---

[1] الديوان ص ٧٣.

بالخلافة، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين، أما المتوكل فهو صفوة الله، اختاره لعباده، بل هو الميثاق والعهد الذي عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا، يقول له[١]:

أنت ميثاقنا الذي أخل اللـ ـه علينا وعهده المسئول

بك تزكو الصلاة والصوم والحـ ـج ويزكو التسبيح والتهليل

وكان هذا الموقف من على يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة.وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زين عمله للرعية، ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه في سجنه حتى مات، وكذلك نكب عمر بن فرج الرخجي وكان من علية الكتاب ومشاهيرهم، وينوه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية، غذ كان ابن الزيات- في رأيه- ظالماً جائراً يزري على سنن النبي، وكان الرخجي يجور في أحكامه وتصرفاته[٢]. ويعقد المتوكل البيعة في سنة ٢٣٥ لبنيه الثلاثة محمد المنتصر وأبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهداً إليهم بولاية العهد على التوالي، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين[٣]. وأمر المتوكل كما مر بنا في غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعاً الطيالسة العسلية تمييزاً لهم ويشدوا في أوساطهم الزنانير وكتب بذلك إلى عماله في الآفاق، فقال ابن الجهم[٤]:

العسليات التي فرقت بين ذوي الرشدة والغي

وما على العاقل أن يكثروا فإنه أكثر للفي

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعاً، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعة عليه وحدهما، فقد أوغر أيضاً صدور النصارى وأهل الذمة. ولم يقف إيغاره الصدور عند هذه البيئات الثلاث، فقد أوغر أيضاً صدور حاشية المتوكل جميعاً شعراء وغير شعراء، وكان منهم مروان بن أبي الجنوب والبحتري والحسين بن الضحاك وعلي بن يحيى المنجم وأبو العيناء وابن حمدون وعزون ويختيشوع الطبيب النصراني وعبادة المضحك، وساءهم جميعاً أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده، وتصدى له منهم البحتري ومروان بن أبي الجنوب يهجوانه. وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل،فتارة يقولون له إنه يجمش غلمانك ويلاعبهم، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك. وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل

---

[١] الديوان ص ٢٥.

[٢] الديوان ص ٣٩ وما بعدها.

[٣] الديوان ص ١٢٥.

[٤] الديوان ص ١٩٢ وألفى في البيت الثاني: الفئ وهو الغنيمة.

ممن لم نسمهم، وكان منهم المعتزلي والشيعي والنصراني ومن يودلو انتقم منه شر انتقام، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظاً وحنقاً عليه، فأمر بحبسه لسنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن أحداً منهم لم يحام عنه في بلائه، بل لقد خذلوه جميعاً، وما يلبث أن يقول[١]:

تضافرت الروافض والنصارى وأهل الإعتزال على هجائي

وكأنه كان يعرف في وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به في غياهب السجون، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشي الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والندماء وإن لم يتعرض لهم في هذه القصيدة بالذكر؛ ويقول ابن المعتز: "إنما عني بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال نبي دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل[٢]". ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل، كان ابنه طاهر – كما أسلفنا – والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله، وأسرها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل. وكان أحمد بن أبي دؤاد رأساً من رءوس الاعتزال، كان المتوكل يفسح له في مجالسه، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق، فحفظ له المتوكل صنيعه، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم. أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات في بيتيه السابقين وكان يكن له عداوة شديدة.

وظل ابن الجهم في محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه، مرسلاً له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه، منددا بخصومه بل هاجياً لهم أشد الهجاء وأعنفه، ورق له المتوكل فرد غليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبروا لابن الجهم مكيدة لا تقبل فيها التعلات والمعاذير، غذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سولت له أن يهجوه هجاء قبيحاً، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يصلب يوماً إلى الليل، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحي نيسابور تسمى الشاذياخ حبسه طاهر بها، ثم أخرج من محبسه وصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل[٣]، وكأن طاهراً رأى في ذلك فرصة أن يقتص من ابن الجهم على هذا النحو البشع، لوصفه السالف له هو وبيته في أشعاره بأنهم روافض أو شيعة غالية، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل

---

[١] الديوان ص ٨٤.

[٢] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠.

[٣] أغاني ٢٠٨/١٠.

ودولته. وظل في سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاق فأطلقه، ومثل ابن الجهم بين يديه، يقول:

أطاهر إني عن خراسان راحل ومستخبر عنها فما أنا قائل

فقال له طاهر: لا تقل إلا خيراً فإني لا افعل بك إلا ما تحب، ووصله وحمله وكساه[١]، وأخذ يبتغي إلى مودته كل الوسائل. ويبقى ابن الجهم في جواره مدة يسمر فيها عنده ويلزمه في غدوه ورواحه إلى الصيد[٢]. وكان طبيعياً أن تترك هذه المحنة التي طالت سنواتها والتي شقى بها في بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاً كئيباً على نفسه حتى لنراه عقب رد حريته إليه يطيل المكث في القبور، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر، فيجيبه[٣]:

يشتاق كل غريب عند غربته ويذكر الأهل والجيران والطنا

وليس لي وطن أمسيت أذكره إلا المقابر إذ صارت لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق، ولكنه لم يول وجهه نحو سامراء؛ فقد أزور عنه المتوكل وأغلقت أبواب قصوره من دونه، إنما ولي وجهه نحو بغداد، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه، فقد تغير عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعاً،ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفي ولا الأخ المخلص، وحزن لذلك حزناً شديداً، وأداه حزنه على أن يغرق أساه في كئوس اللهو علها تنسيه كارثته، ولزم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقين (نخاس) بالكرخ يسمى المفضل، كان منزله مكتظاً بالجواري العابثات اللائي يتفنن في جذب الشعراء والشباب إليهن، ومرت بنا في الفصل الثاني أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجواري وكيف كان يعبثن بقلوب الفتيان ويسعرن أفئدتهم ناراً[٤]. وينعي إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حاراً. وما توافى سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم العربي المأساة التي سبق أن أشرنا إليها في الفصل الأول،وهي مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلي بن يحيى الأرمني في حروب الروم، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب في كل مكان، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً، فيعتزم الجهاد في سبيل الله مع المجاهدين، ويخرج في قافلة إلى حلب لغزو الروم، ويحاول أن

---

[١] أغاني ٢٠٩/١٠ وما بعدها.

[٢] أغاني ٢٢٧/١٠.

[٣] أغاني ٢٢٤/١٠.

[٤] الديوان ص ٥٢.

يتجه من حلب إلى بعض الثغور[١]، ويعترضه أعراب من بني كلب، ويقاتلونه، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة، وتصيبه طعنة قاتلة، فيقتل شهيداً دون غايته[٢].

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجل مدائحه في المتوكل، فقد كاد لا يترك فيه فضلاً لغيره، ومر بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله، بل لقد تحول داعية له، يحامي عنه ويدافع، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن، بمثل قوله[٣].

به سلم الإسلام من كل ملحدٍ وحل بأهل الزيغ قاصمة الظهر

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين، حتى ليقول[٤]:

لنا في بني العباس أكرم أسوةٍ فهم خير خلق الله طرا وأفضل

ويقول للمتوكل[٥]:

ولن يقبل الإيمان إلا بحبكم وهل يقبل الله الصلاة بلا طهر

وكان لا يني يمدح المتوكل بحب الخير والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذي يحرر الناس من الخوف ونشر العدل الذي لا تصلح الحياة بدونه، يقول[٦]:

ملك باسط اليدين إلى الخير ر صفوح عن الذنوب غفور

أمن الناس واستفاض به العد ل فلا خائف ولا مقهور

وله في المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان،ونراه يسوق في فاتحتها دعوة للصبوح بالخمر من أيدي الخرد الغيد، ويشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس، ثم يأخذ في مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من

---

[١] تاريخ بغداد ٣٦٩/١١.

[٢] الأغاني ٢٣٣//١٠ وما بعدها.

[٣] الديوان ص ٢٢٢.

[٤] الديوان ص ٧٠.

[٥] الديوان ص ١٤٨.

[٦] الديوان ص ٣٥.

الرفق والعطف، ويعلن في صراحة صريحة أنه خراساني من شيعة بني العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق السود، يقول[١]:

نحن أبناء هذه الخرق السو د وأهل التشيع المحمود

وأروع من هذه التهنئة تهنئة المتوكل بقضاء قائده بغا قضاء مبرماً على غسحق ابن إسماعيل التأثر بأرمينية وهي أرجوزة أنشدها ارتجالاً، وفيها يصور بأس الجيش العباسي في تلك الحرب، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل، يشير بذلك إلى سورة الفيل،وقد تخلل الاقتباس منها أبياته[٢]، وهي تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نبع غزير.

ويدخل ابن الجهم السجن، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه، ونراه في ميمية قدمها إليه يذكر سنة التي أشرفت على الخمسين، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفاً[٣]:

أما وأمير المؤمنين لقد رمى الـ ـعدو فلا نكساً ولا متهضماً

ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخطة خسف سامنيها محتماً

فخطة الخسف والظلم والهوان ستنقشع عنه، ولكنها لم تنقشع، فعاد على استعطافه في لامية له استهلها بالحديث عن الصبر الجميل، ويسترسل في مديحه، ويقول إنه خير خلق الله وأعدلهم وأشدهم توخياً للإنصاف، وكأنه يشير على ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول[٤]:

يعاقب تأديباً ويعفو تطولاً ويجزي على الحسنى ويعطي ويجزل

ولا يتبع المعروف منا ولا أذى ولا البخل من عاداته حين يسأل

رعاك الذي استرعاك أمر عباده وكافاك عنا المنعم المتفضل

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر، كما أسلفنا، وكان يمدح أباه وبيته، غير أنه زل زلته التي تحدثنا عنها حين أحس أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره، فسماهم

---

[١] الديوان ص ٣٥.

[٢] الديوان ص ١٧٦.

[٣] الديوان ص ٢١.

[٤] الديوان ص ١٦٥.

رافضة،وكأنما أراد من المتوكل أن يطير بهم طيرة بطيئاً سقوطها،وظل طاهر يسرها له، حتى مكن منه، ويرسل له ابن الجهم من سجنه في الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله[١]:

إن كان لي ذنب فلي حرمة والحق لا يدفعه الباطل

وحرمتي أعظم من زلتي لو نالني من عدلكم نائل

ولكن الزلة في رأي طاهر كانت أكبر من الحرمة، فلم يأبه باستعطافه، حتى أمره المتوكل برد حريته إليه. حينئذ خشي معرة لسانه، فقربه منه وجعله من ندمائه وجلسائه.

ولابن الجهم مراث قليلة في مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر، يعزي بها طاهراً ابنه، مصوراً عظم الفادحة، فيه، حتى ليظن كأن ركناً من أركان الإسلام انقض انقضاضاً، في يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام، على نحو ما يقول في مطلعها[٢]:

أي ركن وهي من الإسلام أي يوم أخنى على الأيام

ومضى يعزي آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه، ثم انتقل إلى مديح طاهر ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه. وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحي أبي تمام، وهي أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدت عليها الأيام، حتى إن الشعر ليبكيه بكاء مراً، فقد هلك مثقفه ومروض قوافيه وجف غدير روضته، وجفت بدائع فطنته، يقول[٣]:

غاضت بدائع فطنة الأوهام وعدت عليها نكبة الأيام

وغدا القريض ضئيل شخص باكياً يشكو رزيته إلى الأقلام

وتأوهت غرر القوافي بعده ورمى الزمان صحيحها بسقام

أودي مثقفها ورائض صعبها وغدير روضتها أبو تمام

ومر بنا أنه رثى المتوكل رثاء حاراً حين قتله بعض حرسه وحواشيه، وهو يستهل رثاءه له بوصف سحابة أطلت العراق وملأته أمطاراً وخصباً، غير أن عاصفة هوجاء نحتها عنه، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعاً مريراً، مزرياً على جنوده أن لم ينصروه. منددا بمن قتلوه تنديداً شديداً[٤].

---

[١] الديوان ص ١٦٩ والأغاني ٢١٨/١٠.

[٢] الديوان ص ١٨٢.

[٣] الديوان ص ١٨١.

[٤] الديوان ص ٥٦.

والهجاء عنده ليس كثيراً، وهو يخز فيه وخز الإبر، وأحياناً يطعن طعنات دامية، مما جعل ابن المعتز يقول: إنه كان هجاء يضع لسانه حيث يشاء، ويقول المسعودي: "كان في لسانه فضل قل من سلم معه منه"، ولعله يقصد تعرضه للشيعة والعلويين والمعتزلة، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أوذى أو وقعت عليه إهانة، وممن تعرض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة، لأنه سأله الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به، حتى إذا نكبه المتوكل شمت به وهو وابنه أبي الوليد، وسل عليهما لسانه بمثل قوله[١]:

يا أحمد بن أبى دؤاد دعوة ... بعثت إليك جنادلا وحديد

ما هذه البدع التي سميتها ... بالجهل منك العدل والتوحيدا

افسدت أمر الدين حين وليته ... ورميته بأبي الوليد وليدا

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامراء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدأين أساسيين في الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم على القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام، حتى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر. وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان. وكان مروان بن أبي الجنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوه، ويقال إنه هجاه يوماً في مجلس المتوكل، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المصمتين[٢]:

بلاء ليس يشبهه بلاء ... عداوة غير ذي حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك في عرض مصون

وقد جرده من الحسب والدين والعرض والشرف.

ولابن الجهم غزل كثير، وهو تارة يضعه في مقدمات قصائده، مذيباً فيه لواعج حبه، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب في فؤاده من العواطف والمشاعر، ومن مقدماته المشهورة التي طارت على كل لسان قوله في فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل[٣]:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن ... سلوت ولكن زدن جمراً إلى جمر

---

[١] الديوان ص ١٢٥.

[٢] الديوان ص ١٨٧.

[٣] الديوان ص ٢٢٠.

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التي تفد من كل مكان مكشوف وخبئ من حيث يدري ابن الجهم ومن حيث لا يدري، وقد أعدن له جذوة الحب القديم التي لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة، وقلبه يلتاع لوعة شديدة. ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يضئن من بعيد كالأهلية تتزود منها الأبصار، ولا متاع سوى متاع النظر والخيال، وقد التهبت منه جوانح الفؤاد، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة، ثم يعود على الشكوى من الهجر والفراق، ويجري حواراً طريفاً عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأي في وصله وصده، ومن طريف ما له في الغزل قوله[١]:

سقى الله ليلا ضمنا بعد فرقة ... وأدنى فواداً من فؤاد معذب

فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة ... من الراح فيما بيننا لم تسرب

وكأنهما اصبحا روحين في بدن.

والفخر كثير في أشعار ابن الجهم، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التي أغرته بأن يكون صاحب لهو ومجون على الأقل في فترات من حياته، وصور حين حبس وصلب عرياناً صلابة نفس غير مألوفة، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً، ويستشعر هذا المعنى في عمق حين يفتتح إحدى قصائده التي استعطف بها المتوكل بقوله[٢]:

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ... ولكن عاراً أن يزول التجمل

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف، ولكنه احتمل وقاوم، حتى ليقول لبعض صواحبه[٣]:

فلا تجزعي إما رأيت قيوده ... فإن خلاخيل الرجال قيودها

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هي حلي الرجولة والفتوة، وهو خليق أن يتحلى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضر، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده، فنفسه لا تضعف ولا تهون، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادتها صلابة فوق صلابة، إنها

---

[١] الديوان ص ٩٥.

[٢] الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢١.

[٣] الديوان ص ٥١.

من جوهر كريم لا تذيبه المحن والخطوب ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حدا يفوق كل وصف حين يقول صاحبته[١]:

قالت حبست فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهند لا يغمد[٢]

أو ما رأيت الليث يألف غيله كبراً وأوباش السباع تردد[٣]

والشمس لولا أنا محجوبة عن ناظريك لما أضاء الفرقد

والبدر يدركه السرار فتنجلي أيامه وكأنه متجدد[٤]

والغيث يحصره الغمام فما يرى إلا وريقه يراح ويرعد[٥]

والنار في أحجارها مخبوءة لا تصطلي إن لم تثرها الأزند

والزاعبية لا يقيم كعوبها إلا الثقاف وجذوة تتوقد[٦]

وهو يمثل نفسه لصاحبته سيفاً مسلولاً وضع في غمده، بل كأنه أسد في أجمته وشمس في حجابها وبدر في سراره، بل لكأنه غيث مضمر في غمامه ونار مكنونة في زندها ورمح يصقله مثقفه. وهي صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وهن ولا خور. وينفي إلى خراسان ويسجن ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتظل له نفسه الصلبة ويزأر منشداً[٧]:

ما عابه أن بز عنه لباسه فالسيف أهول ما يرى مسلولا

فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يرى حين يجرد من غمده ويصوب إلى الرقاب.

ولابن الجهم أشعار كثيرة في وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفي وصف الطبيعة الحضرية ورياضها وريحاينها، ومرت بنا في الفصل الماضي قطعة له بديعة في وصف الورد

---

[١] الديوان ص ٤١ والأغاني ٢١٣/١٠.

[٢] المهند: السيف.

[٣] الغيل: أجمة الأسد.

[٤] السرار: آخر أيام الشهر.

[٥] ريق الغمام: أوله . يراح: تكثر معه الرياح والعواصف الممطرة.

[٦] الزاعبية: ضرب من الرماح المصمية.

[٧] الديوان ص ١٧٢.

وتهاديه ووصف شذاه العطر الذي يشفى القلوب الكليمة، وله أشعار مختلفة في وصف اللهو والملاهي، ومن قوله في وصف مجلس أنس[١]:

الورد يضحك والأوتار تصطخب والناي يندب أشجاناً وينتحب

والراح تعرض في نور الربيع كما تجلي العروس عليها الدر والذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء. وأنشدنا في الفصل الماضي قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة، وكذلك وصفه للعبة الشطرنج وله قصيدة حيدة في وصف سفينة[٢].

وجعلته نكبته يكثر من التأمل في الحياة وفي سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً في أشعاره من مثل قوله[٣]:

ومن طلب المعروف من غير أهله أطال عناءً أو طال تندما

ومن سامح الأيام يرض حياته ومن من بالمعروف عاد مذمماً

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون في أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة، وكان كثيراً ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتا وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء.

---

[١] الديوان ص ١٠٥.

[٢] الديوان ص ١١٤.

[٣] الديوان ص ٢٠.

٢

البحتري[١]

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد؛ طائي الأب شيباني الأم غلب عليه لقب البحتري نسبة إلى عشيرته الطائية بحتر، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بمنبج إلى الشمال الشرقي من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات، وقيل: بيل ولد بقرية تجاورها تسمى "زردفنة" والرأي الأول أصح، لأن البحتري نفسه يكرر كثيراً في شعره "منبج" مسقط رأسه، وكانت تنزلها عشار من طيء، وهي كما يقول ياقوت في معجم البلدان: مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمي، وفي ديوان البحتري مدائح كثير لابنه محمد ولطائفة من أسرته عاشت في منبج وحلب.

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما روي عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية، وقد نشأ في أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتاب، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب، واختلف حين شب على حلقات العلماء في المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام. واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه في بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته على بلاد أكبر من حولها؛ غذ نراه ينزل حلب، وهناك تعرف على علوة بنت زريقة التي شغفته حباً، ويبدو أن زريقة كانت مغنية، وتعرف أيضاً على صديق يسمى الذفافي مدحه ببعض شعره، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة، على شاكلة قوله[٢]:

نبئتها زوجت أخا خنث ... أغن رطب الأطراف لينها

---

[١] أنظر في البحتري وشعره الأغاني (طبعة الساسي) ١٦٧/١٨، والموشح للمرزباني والموازنة بين الطائيين للآمدي، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ والشريشي على مقامات الحريري ٤٠/١ وعبث الوليد لأبي العلاء ، وأخبار البحتري للصولي (طبع المجمع العلمي العربي دمشق) وتاريخ بغداد ٤٤٦/١٣، ومعجم الأدباء لياقوت ٢٤٨/١٩، وابن خلكان، ومرآة الجنان لليافعي ٢٠٢/٢، وشذرات الذهب لابن العماد ١٨٦/٣ والنجوم الزاهرة ٩٩//٣، وحياة البحتري وفنه لأحمد أحمد بدوي، والفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة – طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفي ومقدمته (طبع دار المعارف) .

[٢] الديوان ٢٣٢٥/٤.

وظلت دار علوة قائمة بحلب، حتى عصر ياقوت غذ يقول: "وفي وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحتري". وقد يدل ذلك على يسار الذفافي وأنه شيد لها داراً فخمة. وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحتري حتى الأنفاس الأخيرة من حياته. واتسع برحلاته إلى حمص، وكأنما كان السعد معه على ميعاد، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليها أشعارهم، فعرض عليه شعره، فأقبل عليه، وقال له: أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك، فشكا إليه خلة، فكتب على أهل معرة النعمان: "يصل كتابي مع الوليد أبي عبادة الطائي وهو على بذاذته "سوء حاله" شاعر فأكرموه" واستقبلوه استقبالاً حسناً ووظفوا له أربعة آلاف درهم[١]. وفي رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط، فقد وصله أيضاً ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصهم بمديحه فيمدحهم، مثل آل حميد الطوسي في الموصل، وخالد بن يزيد الشيباني والي أرمينية والثغور، وأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي الذي ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحي أبي تمام. وتخرج بعض الروايات ذلك مخرج القصص، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده، فأنشده قصيدته:

أأفاق صب من هوى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقاً

فردها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه، وعرفه أبو تمام نفسه، ولزمه البحتري[٢]. ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام، فمعرفته بها أسبق من ذلك كما أسلفنا، بل هو الذي حثه على مديح أبى سعيد الثغري ولقائه له وهو عنده. ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب على بعض ممدوحيه، فقد مضى يتعهد شاعريته، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه، حتى خرجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه، ويصرح بذلك البحتري معترفاً بجميل أستاذه إذ يقول[٣]:

"كنت في حداثتي أروم الشعر وكنت أرجع على طبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ... حتى قصدت أبا تمام، فانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا ابا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم. واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق. وإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد، فأشهر

---

[١] أخبار البحتري ص ٥٦ ، والأغاني ١٦٩/١٨.

[٢] أخبار البحتري ص ٦٣، والأغاني ١٦٩/١٨.

[٣] زهر الآداب للحصري ١٠١/١.

مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه، وشرف مقامه ونضد[١] المعاني واحذر المجهول منها، وغياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية. وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسنه العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى".

وكأنما وضع أبو تمام نصب عيني البحتري دستوراً قويماً لإحسانه صناعة الشعر، بل إن هذا بعض الدستور الذي وضعه؛ غذ لابد أنه أوصى البحتري وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته. وهو في هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه، ثم يصف له الجودة التي يقوم عليها النسيب والمديح جميعاً، مع العناية بدقائق المعاني وجمال الألفاظ والأساليب، ونظن ظناً أنه حين وجد في تلميذه حسن الاستجابة، واطمأن على أنه شاعر سيكون له شأن، أخذ يعرفه لا على أهل معرة النعمان فحسب، بل أيضاً على ممدوحيه في حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية. وكاد محمد بن يوسف الثغري بطل حروب بابك قديماً وحروب الروم حديثاً أن يستخلصه لنفسه، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه في الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة، وتغنى طويلا بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمي، ويتحول إلى ابنه يوسف الذي خلفه على إمارته الأخيرة في أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه. ونظن ظناً أن من أوائل مدائحه لأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري رائيته[٢] التي عزيه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة. ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامراء بعد أن وثق من براعته الشعرية، إذ نراه ينزل بها، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه، وكأن صداقة أبي تمام للأخيرين هي التي فتحت له سريعاً تلك الأبواب، وإذا هو يمثل بين أيديهم جميعاً مادحاً ممجداً.

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحتري بعيداً خوفاً على نفسه، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله في بعض الخارجين على أبي سعيد الثغري:

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل: أكنت معتزلياً، فأجابه: "كان هذا ديني في أيام الواثق ثم نزعت عنه في أيام المتوكل، فقال له: يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول!"[٣]. فقد نزع عن نفسه لعهد

---

[١] نضد المعاني: ضم بعضها إلى بعض في اتساق.

[٢] الديوان ٨٨٢/٢.

[٣] أخبار البحتري للصولي ص ١٢٣.

المتوكل ثوب الاعتزال الذي كان يدين به الواثق وزيره ابن الزيات، ولبس ثوب أهل السنة الذي فرضه المتوكل. وهو جانب سيئ في البحتري إذ كان متقلباً مسرفاً في التقلب، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلاً. على كل حال أحس بادئ الأمر أن أبواب المتوكل موصدة من دونه، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه، فقد أخذ يمدح بعض خاصته وخاصة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن علي المنجم، الذي اشتهر بوصلة الشعراء بهما وأخذه لهم الصلات السنية منهما، ووعده على أن يصله بالفتح، ونراه يستنجز وعده في بعض شعره، وينجح على في وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه[١] وينال جوائزه، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل، ويلوح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يفي بوعده في غير قصيدة من مثل قوله[٢]:

وعدت فأوشك نجح وعدك إنه　　من المجد إعجال المواعيد بالنجح

وأنت ترى نصح الإمام فريضةً　　وإخباره عن سبيل من النصح

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه، ويستمع إليه وتتوار صلاته وإقطاعاته عليه، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته، فقد كان ديوان الخراج إليه. ونراه يمدح الوزير الثاني للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان، ولم يكد يترك أحداً من معاوني الفتح ومساعديه إلا مدحه، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتابه في دواوين الخراج وكان نصرانياً، وكأن نصارنيته لم تمنعه من مديحه، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخي صاعد وزير المعتمد. ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم، ويظل يمدحهما طويلاً، حتى بعد خروج أحمد للعمل في دواوين مصر والشام. وكان قد ترك زوجته في منبج وأنجب منها ابنه أب الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه، ويبدو أنه كان يقضي في وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولفحه، يقول[٣]:

نصب إلى طيب العراق وحسنها　　ويمنع منها قيظها وحرورها

هي الأرض نهواها إذا طاب فصلها　　ونهرب منها حين يحمي هجيرها

وكان لا يترك وجيهاً ولا ولياً ولا صاحب خراج في طريقه من سامراء إلى منبج إلا ويقدم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه، من مثل بني حميد الطوسي الطائي وأبي سعيد الثغري وابنه يوسف

---

[١] في أخبار البحتري للصولي ص ٨٣ أن أول قصيدة مدح بها البحتري الفتح بن خاقان لسنة ٢٣٣ هي:

هب الدار ردت رجعت ما أنت قائله　وأبدى الجواب الربع عما تسائله

[٢] الديوان ٤٤٦/١.

[٣] الديوان ٩٤٣/٢.

صاحبي أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمي، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته في الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبي مسلم الكجي، كما كان يمد بحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر، فهو يمدح منهم إسحق المصعبي ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذي حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله، وله في الأسرة شعر كثير. وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائده عبد الله بن دينار وابنه أحمد، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصئائد، وله في الفتح بن خاقان تسع وعشرون قصيدة، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دليل بن يعقوب النصراني[١]. وتحول إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث في عصره إلى ما يشبه آلة راصدة، فهو يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد قائلاً[٢]:

قدامهم نور النبي وخلفهم هدى الإمام القائم المحمود

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدونه، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغري وإلى إقليمهم، فوجه إليهم المتوكل جيشاً سحقهم سحقاً والقوا عنت يدوهم صاغرون، ونوه البحتري بهذا الانتصار طويلاً. وكانت قد حدثت في أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة: تغلب وشيبان وغيرهما، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن الدماء بينها وأن يردها إلى الطاعة، ومن الغريب أن لا تعني كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة، بينما نرى البحتري يسجلها، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغي أن يكون بينها من البر والعطف، فإذا هي تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء، يقول[٣]:

وفرسان هيجاء تجيش صدورها بأحقادها حتى تضيق دروعه

تقتل من وتر أعز نفوسها عليها بأيد ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

واجر أرماح تقطع بينهم شواجر أرام ملوم قطوعها

---

[١] الديوان ١٦٨٩/٣.

[٢] الديوان ٧٠١/٢.

[٣] الديون ١٢٩٩/٢.

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام. وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم، فأغمدت السيوف وقرت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهدة. ويثب أهل حمص بعاملهم[١] لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة في سنة ٢٤١ وينكل بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم، ويسجل البحتري الحادث منوهاً بعفوه قائلاً[٢]:

تداركت بالإحسان حمص وأهلها وقد قارفوا فعل الإساءة والخرق[٣]

وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب، ويستقبل الخليفة الوفد في حفل كبير يصفه البحتري،ويطيل في وصف السماط الذي مد فيه وما علا وجوههم وسيماهم من ذهول وحيرة[٤]. وكان المتوكل قد فكر لسنة ٢٤٣ في في أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومن بها من قواد الأتراك الطغاة،ورحل إليها في سنة ٢٤٣ وتنبهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطر أن ينزل على إرادتهم ،ويذكر البحتري خروجه على دمشق وقدومه منها في غير قصيدة[٥]. ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ في وصف قصوره التي سميت باسم المتوكلية والتي بلغت- كما مر بنا في الفصل الثاني- نحو العشرين، وكان من أهمها البرج الذي عرضنا له هناك، ويتوقف البحتري مراراً في مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفري والصبيح والمليح وشبداز[٦]، وما يزال ينوه بها مباهياً الأمم والشعوب. وفي قصر الجعفري لقي المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحتري وسمعه،وهاله ما رأى، مما جعله يرثى المتوكل برائيته زاعماً أنه دافع عنه بيديه، ويسجل على ابنه المنتصر- كما مر بنا في الفصل الماضي- اشتراكه في المؤامرة الباغية والفتك به، قائلاً[٧]:

أكان ولي العهد أضمر غدرة فمن عجب أن ولي العهد غادره

وحرى بنا أن نذكر أن البحتري لم يتورط مثل ابن الجهم في هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا في هجاء العلويين ولا في هجاء النصارى. وأظلمت الدنيا في عينيه بعد مقتل المتوكل

---

[١] تاريخ الطبري ١٩٧/٩ وما بعدها.

[٢] الديوان ١٥٤٦/٣.

[٣] قارفوا: ارتكبوا . الخرق: الحمق .

[٤] الديوان ١٦٠٢/٣.

[٥] الديوان ٧٠٧/٢ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ، ١٥١٤/٣.

[٦] أنظر الديوان ١٠٤١/٢ ، ٢٠٠٤/٣.

[٧] الديوان ١٠٤٨/٢.

وصاحبه الفتح، فخرج إلى المدائن يتعزى، وهناك نظم سينيته مودعاً فيها حزنه وأساه، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله. ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعاً وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الخصيب متوسلاً غليه بكتابه الحسن بن مخلد حتى يقر به منه ويسترضيه له، ويجيبه على أمنيته، فيعفو عنه المنتصر،ويستمع إلى قصيدته فيه، وكان قد رفع المحنة التي أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم، فأشار إلى ذلك البحتري منشداً[١]:

وآل أبي طالب بعد ما ... أذيع بسربهم فابذعر

ونالت أدانيهم جفوة ... تكاد السماء لها تنفطر

وصلت شوابك أرحامهم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر

ويتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب في الوزارة، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فيتستصفي أمواله وينفي إلى جزيرة إقريطش (كريت) وحينئذ نجد البحتري يتنكر له، ويبالغ في تنكره إرضاء للمستعين وقواده، فيؤلبهم عليه، ويحثهم- كما مر بنا في الفصل الماضي- على قتله قائلاً[٢]:

لابن الخصيب الويل كيف انبري ... بإفكه المردي وإبطاله

وهو جانب في البحتري لاحظه بعض معاصريه- كما مر في غير هذا الموضع- إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه، حين يقلب الدهر مجنه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت، فإنه بدلاً من أن يثير ذلك في نفسه ضروباً من الشفقة والرحمة، يسارع على الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما في أيديهم من المال والنفع، ويضرب القدماء لذلك مثلاً موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذي يرتجي نفعه أسرع غليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعاً بمثل قوله[٣]:

بكى المنبر الشرقي إذخار فوقه ... على الناس ثور قد تدلت غباغبه[٤]

فكيف رأيت الحق قر قراره ... وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه

---

[١] الديوان ٢/٨٥٠ . ابذعر: تفرق.

[٢] الديوان ٣/١٦٣٧.

[٣] الديوان ١/٢١٥.

[٤] خار: صاح . الغباغب: ما تغضن من الجلد في منبت العثنون أو اللحية حول الذقن.

وكان المعتز من أقرب الخلفاء إلى نفسه، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمنه، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة، ومما سجله من الأحداث لعهده وعهد المستعين قتل القائد التركي أتامش وكاتبه شجاع[١] لسنة ٢٤٩ ونراه يمدح القائد التركي وصيفاً[٢] الكبير وابنه صالحاً[٣] ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه، ويستأذن مراراً في الإلمام به. ويكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبي صالح محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم. ويضطر قواد الترك المعتز إلى خلع نفسه في سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدي بعده الخلافة لنحو عام واحد، ويغدو غليه ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاهي ومتاع الحياة الزائل ونشره للعدل في ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين. وسرعان ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم البحتري،وكان الخليفة الحقيقي لعهده أخاه الموفق، وكان حازماً شجاعاً واسع التدبير، وهو الذي قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بإيران هزيمة ساحقة. ويصور البحتري في مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها الحربية، ويصف القصر الذي احتفل ببنائه وسماه المعشوق ونوه به ،وله قصيدة رائعة يهنئ فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج، وفيها يخاطبه بقوله[٤]:

أخذت بوتر الدين مثنى وظفرت يداك فلم يفلت عدو تطالبه

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه، وكان المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي وزر قديماً لأبيه المتوكل، فلزمه البحتري، وفكر في أن يرتجع منه الضياع الكثيرة التي كان المتوكل أقطعها إياه؛ فأكثر الشاعر من التوسل إليه، حتى يتركها له، وقصيدته[٥]:

أمرتجع مني حباء خلائف توليت تسيير المديح لهم وحدي

تصور جزعه المفرط، ويتوفى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكياً ضارعاً، فيجعل أمره إلى كاتبه السيبي، ولا يسارع إلى استرضائه، فيشكوه على ابن مخلد بحائيته[٦]:

---

[١] الديوان ٥٢٤/١.

[٢] الديوان ١٤٠٣/٣.

[٣] الديوان ٢١٧٤/٣.

[٤] الديوان ٢٢٤/١.

[٥] الديوان ٤٩٣/١.

[٦] الديوان ٤٣٨/١ وأخبار البحتري ص ١١٠.

لك الخلائق فينا السهلة السمح والنيل يسلس للراجي وينسرح

ولا يكاد يسمعها لحسن حتى يبلغ بالبحتري ما يريد، ويزيل المطالبة عنه. ويترك الحسن الوزارة سريعاً ويتولاها سليمان بن وهب الذي استوزره المهتدى من قبل، ويقدم إليه البحتري مدائحه، ويعصف به الموفق في سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله. ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شير زاد لمدة شهر واحد، وللبحتري فيه مدائح مختلفة، ويلي الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلي الكتابة للموفق صاعد بن مخلد، ويكثر البحتري من مديح ابن بلبل، ويهجو له في بعض مديحه ابن شيرزاد الذي طالما مدحه،ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانياً يسمى إسرائيل، ويلح على ابن بلبل في قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله[١]:

وأعتقت الرقاب فمر بعتقي على بلدي وأنت به جدير

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق، وكان من وجوه النصارى، حين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفي أخيه عبدون الراهب وابنه أبي عيسى العلاء مدائح كثيرة. وكان أبو عيسى مثقفاً ثقافة واسعة بعلم الفلك، مما جعل البحتري يكثر له في إحدى مدائحه من ذكر النجوم[٢]. ومن كبار الكتاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل. وفي أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكوتكين والهيثم بن عبد الله التغلبي وغلى الموصل وأحمد بن محمد بن سطام وإلى الشام وسيما الطويل وغلى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة وإلى الري وكتاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصراً ليطالبهم برسومه[٣]. وممن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة وآل نوبخت. وكان كثير الإلمام ببغداد، وعني بمديح كثيرين من آل طاهر حكامها كما مر بنا، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطربلي والمبرد النحوي، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجغرافي صاحب البريد بناحية الجبل. ويبدو أن أصاب الخراج عادوا يتعقبون البحتري ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة في خراجه، كما يسأل المعتمد نفسه قائلاً[٤]:

أخشى الخراج وقد دعوت لعظمه ملك الملوك ورافد الرفاد

---

[١] الديوان ٢/٩١٦.

[٢] الديوان ٢/١٢٦٨.

[٣] الديوان ٣/١٨٥٦.

[٤] الديوان ٢/٧٣٤.

ومضى عمال الخراج يشقلون عليه، وهو كل يوم يمثل بين أيديهم شاكياً ملحاً في أن يحطوا عن كاهله ما يطلبونه منه، ولا يكاد يظفر بما يبتغي منهم، فيفكر في مبارحة العراق، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرح في مديحه له بما في نفسه قائلاً[١]:

فأصبحت في بغداد لا الظل واسع ولا العيش غض في غضارته رط

أأمدح عمال الطساسيج راغباً إليهم ولي بالشام مستمتع رغب[٢]

وكل شيء يؤكد أن البحتري كان قد أثرى ثراء فاحشاً منذ عصر المتوكل، فإنه نثر عليه أموالاً جمة وإقطاعات عديدة، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين، وخاصة آل المدبر، وفي مقدمتهم إبراهيم، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين في دواوين الخراج والضياع، ويقول الصولي إنه كان يوجب على إبراهيم في كل سنة أن يسقط أكثر خارجه أو يؤديه عنه، وإنه استماحه مرة لشراء ضيعة فلامه لكثرة ضياعه، وقال له: تكفيك ضياعك فقط كثرت وعظمت، غير أن البحتري تمادى في إلحاحه عليه، وأنشده قصيدته التي يقول فيها[٣]:

وما زالت العيس المراسيل تنبري فيقضى لدى آل المدبر حاجها[٤]

ولم لا أغالى بالضياع وقد دنا على مداها واستقام أعوجاجها

إذا كان لي ترييعها واغتلالها وكان عليك عشرها وخراجها[٥]

فأمر له بالمال الذي يشتري تلك الضيعة به[٦]. وكلما تقدمنا مع البحتري في الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه،وقد وصلته من المعتز ضياع وأموال كثيرة، وهو مع ذلك لا يزال يلح عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويهديه إليه[٧]. وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله

---

[١] الديوان ١٢٣/١.

[٢] الطساسيج: الإقطاعات والضياع ، ويقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين طسوجاً. رغب: متسع.

[٣] الديوان ٤٢٧/١.

[٤] العيس: الإبل ، المراسيل: النوق السهلة السير.

[٥] الترييع: الإنماء .والعشر: عشر الثمار وهو الخراج المفروض.

[٦] أخبار البحتري للصولي ص ١١٩.

[٧] أنظر التحف والهدايا للخالدين نشر سامي الدهان ص ٧٣ ، زهر الآداب ٩٧/٣، وأخبار البحتري ص ١٠٨ وقد عدد في القصيدة عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد الرسمي. أنظر الديوان ١٥٣٦/٣.

إقطاعاً جاوره البحتري في بعضه، وكأنه لم يكتف بما صار في يده، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التي تجاوره، وتشفع إليه بأبيه وصنع في ذلك أشعاراً، منها قوله للمعتز:

يا واحد الخلفاء غفير مدافع كرماً وأحسنهم ندى وصنيعاً

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلاً له: اقض حاجة البحتري، فوهبها له[١]. وتظل عنده شهوة تملك الضياع والإقطاعات؛ غذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعاً[٢] ومن ابنه أبي صالح ضيعه[٣] ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً[٤]. ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً[٥] وسيوفاً[٦] وشراباً[٧] وثياباً[٨] وغلماناً[٩]. وبذلك نستطيع أن نوفق بين شحه وما يقال من أنه كان يمشي في موكب من غلمانه[١٠]، فقد كانوا جميعاً هبات من ممدوحيه، وخص نسيماً من بينهم بغزل كثير، وكان قد أهداه إليه محمد[١١] بن عيسى القمي كاتب أبي سعيد الثغري، وفي الأغاني "أن البحتري جعله باباً من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن ينفق عنده الأدب، فإذا حصل في ملكه شبب به وتشوقه ومدح مولاه حتى يهبه له، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره[١٢]". وقد يكون أبو الفجر مبالغاً في ذلك، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه، فرده عليه[١٣]، ولعل في ذل كله ما يصور مدى ثراء البحتري من جانب وشدة طمعه من جانب لآخر، وقد ظل يلحف في سؤال

---

[١] أخبار البحتري ص ١٠٥ والديوان ١٣٠٩/٢.

[٢] الديوان ١٥٢٤/٣.

[٣] الديوان ١٠٠٨/٢.

[٤] الديوان ٢٠٤١/٣.

[٥] أنظر الديوان ٣٩٩/١ ، ١٤٨٥/٣، ١٧٤٤، ١٩٨٩، ٢٠٣٠.

[٦] الديوان ١٧٤١/٣.

[٧] الديوان ٤٠٧/١ ، ٤٢٧ ، ٤٩١ ، ٥٥٩ ، والأغاني ١٧١/١٨.

[٨] الديوان ٨٣٧/٢ ، ٨٩٢ وأخبار البحتري ص ١١٥.

[٩] أنظر مثلاً ٩٨٦/٢ ، ١٠٦٧ ، ١٤٨٥/٣.

[١٠] راجع الأغاني ١٧٠/١٨ وقابل بالعمدة لابن رشيق ١٥٠/٢.

[١١] الديوان ٥٢٧/١.

[١٢] الأغاني ١٧١/١٨.

[١٣] أخبار البحتري ص ١٢٧ وما بعدها.

العطاء والضياع فكان طبيعياً أن يلفت إليه أنظار معاصريه، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان من يني يحتال في التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو على كات بكبير مثل إبراهيم بن المدبر. ويفكر في الإفادة من أحمد بن طولون- كما مر بنا في غير هذا الموضع- فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص وؤنس بن بغا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابي. ويتوفى ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ ونرى البحتري في بعض قصيدة[١] يجمع بين مديحه ومديح أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد. وفي سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنيه أبي عيسى العلاء في الحبس بعد ثلاثة عشر يوماً ويكتئب البحتري، ويرثيه بقصيدة يقول فيها[٢]:

ولم أر كالدنيا حليلة وامق　　محب متى تحسن بعينيه تطلق

تراها عياناً وهي صنعة واحدٍ　　فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

وحين سمع بعض خصومه البيتين شنعوا عليه بأنه ثنوي يؤمن بإلهي النور والظلمة، وشاع ذلك في عامة بغداد وكانت غالبة عليها حينئذ، فخافهم البحتري على نفسه وخرج إلى منبج. ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكي الصولي أن أول ما رأى البحتري سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد في مسجده ببغداد. ونظن ظنا أن رحلاته على العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سبباً في أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد. وربما ولي وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه[٣]، ويبدو أنه كان يلقاه في رحلاته بالشام، ثم مدها على مصر للقائه. ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه واسحق بن نصير. غير أنه كانت علته كبرة فلم يقم بمصر طويلاً وعاد إلى منبج، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبي نداء ربه لعام ٢٨٤.

وكان البحتري يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية في عصره، وليس معنى ذلك أنه تخصص في أحد فروعها، ولكنه كان يلم بها، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد في جميع أنحاء العالم العربي حينئذ، ويرمز إلى ذلك في شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث، إذ يقول في مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل[٤]:

خلق أتي بفضله وسنائه　　طبعاً فجاء كأنه مصنوع

---

[١] الديوان ٩٠٩/٢.

[٢] الديوان ١٥٥٣/٣.

[٣] النجوم الزاهرة ٩٧/٣.

[٤] الديوان ١٣١٦/٢.

وحديث مجد عنك أفرط حسنه حتى ظننا أنه موضوع

وفي ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوي وتفسير وفقه، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية، وهذا طبيعي لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقاً، فكان لا بد له أن يتزود من اللغة ومن النحو من التاريخ العربي الإسلامي، ونراه في بعض شعره يعرض لعالم لغوي في عصره هو الفضل بن محمد اليزيدي، رآه يزري على جميل وكثير، فيقول إنه لا علم له بالشعر، وكل علمه إنما هو التعمق في الفاعل والمفعول[1].

وكان لا يباري في ثقافته بالشعر، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلة ومشابهة لأستاذه أبي تمام في حماسته المشهورة، ويقول ابن النديم إن له كتاباً ثانياً في معاني الشعر، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن. والكتاب الأول كاف في تصور إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير. وبالمثل كان يكب على دواوين الشعراء المحدثين، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة. ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحتري كان مثقفاً بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل؟ حقاً له قصيدة، كما أسلفنا، أكثر فيها من ذكر النجوم، ولكن هذا لا يعني أنه كان ملماً بعلم الفلك والنجوم لعصره، فقد كان منصرفاً عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل. وكان إذا ألم بها يلم من الظاهر إن صح هذا التعبير، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء، وإن كان قد تحضر فيما بعد، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية.

وكانت قد أخذت تتكون في النقد والبلاغة– كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع– ثلاث بيئات: بيئة محافظة مسرفة في المحافظة ترى أن الشعر ينبغي ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة، وهي بيئة اللغويين، وبيئة مجددة مسرفة في التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية، وهي بيئة المتفلسفة، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم، وبيئة معتدلة، فهي لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة، بل تقف موقفاً وسطاً، فهي تقرأ ما يترجم وهي تنظر فيما أثر عن العرب من ملاحظات بلاغية، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تزنها موازين دقيقة، وهي بيئة المتكلمين، على نحو ما نعرف عن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، وانحاز الشعراء غالباً على البيئتين المحافظة والمعتدلة، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة لأنها كانت تجافي الذوق العربي. غير أن هذه البيئة أخذت تشن حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحتري الذي لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل لمنافسة

---

[1] الديوان ١٨١٧/٣ وما بعدها.

بينهم وبين البحتري وفي مقدمتهم ابن الرومي. وكانت قد ساءت العلاقة بين البحتري وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد، ونظن ذلك حدث في بعض فترات عزله عن وظيفته، وسارع البحتري فلمح إليه في بعض شعره بما يشبه الذم، ورد عليه عبيد الله يمده صديقه ابن الرومي بأشعار ملتهبة، ويبدو أنهما نددا بضعف ثقافة البحتري وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقاً، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها[١]:

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغني عن صدقه كذب

ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ ... منطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفي إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

وحقاً لم يكن امرؤ القيس الملقب بذي القروح يعرف فلسفة ولا منطقاً لا لأنه صد عن ذلك، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحتري لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الرومي وأضرابه وغذى بهما شاعريته غذاء رفيعاً. وهو يلمح في الشطر الأخير إلى ابن الرومي وما اشتهر به من مطولات شعره.

وقد ساعد الذوق المحافظ الذي ساد في العصر – كما أشرنا إلى ذلك مراراً– إلى ان ترجع كفة البحتري المحافظ كفة ابن الرومي المجدد، وأن يقف في صفه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء، على حين كان ابن الرومي يعيش لعصره فيما يشبه عزله من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقاً واضحاً بملكاته الشعرية الخصبة، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحتري، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد.

وليس معنى ذلك أن البحتري انفصل تماماً عن روح العصر، فقد أن يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبي تمام وشعر من سبقوه... أمثال مسلم وأبي نواس وبشار، المرة تلو المرة، والمرات تلو المرات، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره، ولذلك نعته معاصروه طويلاً بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه، وفي ذلك يقول ابن الرومي لأبي عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن في ربوع بغداد[٢]:

أيسرق البحتري الناس شعرهم ... جهراً وأنت نكال اللص ذي الريب

وأهم ديوان ألح على تمثله ديوان أستاذه أبي تمام، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث، وكان أول من عني بذلك عنده معاصره أحمد بن أبي طاهر؛ غذ استخرج له ستمائة

---

[١] الديوان ٢٠٩/١.

[٢] ديوان ابن الروم ي(نشر كامل كيلاني) ص ٣٥.

بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبي تمام، وقد بلغ ما سلبه من في رأي ابن أبي طاهر مائة بيت. وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبي تمام، وعليه اعتمد الآمدي في الفصل الذي عقده لهذا الجانب من سرقات البحتري. وفي رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة، بحيث تمثل المعاني والأخيلة الحديثة، بل قل بحيث استخلصها لنفسه، وأخذ يصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة. وحقاً أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعاني عنده وعند أبي تمام، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره في ليقة المنطق، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها لوحدة العضوية، فالمعاني والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحتري، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر[١]، لسبب بسيط وهو أنه لم يخضع في شعره للمنطق على نحو ما صرح بذلك آنفاً. وظاهرة ثانية هي أنه جاري أستاذه في الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره، ولكن حين نقرن أي لون عنده إلى أصله عند أبي تمام سنجد مفارق واسعة، فأبو تمام سنجد مفارق واسعة، فأبو تمام مثلاً يجنح إلى استخدام نوافر الأضداد في أشعاره كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول، ولم يكن البحتري يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفي بالطباق بحيث إذا ذكر الوصل مثلاً ذكر معه الهجر، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبر، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها لوعورة، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها البعودية. ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضاً في حديثنا عنه في العصر العباسي الأول، ولم يكن البحتري يتعمق هذا اللون تعمقاً من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربيب[٢]، يريدون محافظته على أصوله الموروثة، ومن تتمه ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبي تمام، ولا كان يستطيع أن يتغلغل في دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التي لا تنضب في أشعاره، ولذلك كان يشيع في أشعاره الغموض، مما جعل القدماء يختلفون في فهم كثير من أبياته وتفسيرها وتأويلها، لكثرة ما توحي به من معان، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء، بل إنك تجد في أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة في أشعاره، وهي أقواس بهية، تزهي بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد.

---

[١] العمدة لابن رشيق ١/١٥٩.

[٢] الموازنة للآمدي (طبعة الجوائب) ص٢.

ولكن إذا كان البحتري لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المهدي الرائع من الشعر والفن، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلاً لا يقل روعة ،وهو مدى الجمال الصوتي البديع، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية، فإذا به ينظم شعراً مصفى مروقاً، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة. وقد وقفنا طويلاً عنه هذا الجانب في الفصل الثاني من كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" وأوضحنا مدى مشاكلته بين أصوات الألفاظ والقوافي في بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا مدى التوافق الصوتي عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحتري، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية[١]. وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافي، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبي تمام، وغذ النقاد يتقابلون في صفين: صف يرفع أبا تمام إلى الذروة، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق في المعاني والأخيلة، وصف يرفع البحتري إلى نفس المرتبة، وهم أصحاب الآذان المرهفة الذين يكبرون اللذة الصوتية، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين، وكان البحتري نفسه إذا سئل عنه وعن أبي تمام قال: جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه، وهو يريد بجيد أبي تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التي لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يحلق في آفاقها، أما رديئه فيريد به بعض أبياته التي يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يعني بألفاظه وأصواته عناية البحتري.

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحتري، فقد عاش، كما مر بنا، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم وولاتهم وقوادهم وكتابهم، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجلاتها، بحيث يعد الشاعر الرسمي لها، وكان طبيعياً لذلك أنت ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين، وأن يتغنى بذلك في أشعاره، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف في صفوفهم مدافعاً عنهم مناضلاً بمثل قوله للمتوكل[٢]:

شرفاً بني العباس إن أباكم ... عم النبي وعيصه المتفرع

إن الفضيلة للذي استسقى به ... عمر وشفع إذ غدا يستشفع

وأرى الخلافة وهي أعظم رتبة ... حقاً لكم ووراثة ما تنزع

---

[١] الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة – نشر دار المعارف) ص ٧٧ وما بعدها.

[٢] الديوان ١٣١١/٢.

أعطاكموها الله عن علم بكم والله يعطي من يشاء ويمنع

فالعباس جد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العيص ومنبت الشجر الضخم، يريد أنه من الأصول بينما علي بن أبي طالب من الفروع، ويستدل على فضله بأن عمر استسقى به في عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به لربه، ولم يستسق بابن أبي طالب، ويشير إلى حكم الميراث فالإسلام وما فرضه من حجب العم لابن أخيه، فالخلافة حق من حقوق العباسيين، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية، وليس لأبناء على وحفدته أي حق في منازعتهم. ويكرر البحتري في مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم، وعدلهم الذي ينشرونه في ربوع الدولة، ومدة رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرارة. وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم، فمن ذلك قصيدته في وصف موكب المتوكل في أثناء خروجه لأداء الصلاة في عيد الفطر، وقد صور في فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة في جيش ضخم كان يحف بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسيه ومن محبة للشعب وإعظام، يقول[1]:

افتن فيك الناظرون فإصبع يومي إليك بها وعين تنظر

يجدون رويتك التي فازوا بها من أنعم الله التي لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت إلى المصلى لابساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر

فلو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعي إليك المنبر

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان، فله ألف ديوانه الحماسة، وقد عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته في تسديد الأمور، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذي لا تصلح حياة الناس بدونه وبعد غوره ويقظته وكفايته لحل أمانة الحكم على خير وجه ممكن، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحطمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر، ومع أخلاقه الرفيعة التي تتحلى بها نفسه الأبية، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه. فكان يعتذر له بأشعار رائعة، سبق أن صورناها في

---

[1] الديوان ٢/١٠٧٢.

الفصل الماضي. ومديحه فيه يكتظ بعاطفة حقيقية، فقد كان يكن له وداً وحباً وإخلاصاً، وكان ما بني يتغنى بمديحه، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيبته [١]:

إذا ما مشى بين الصفوف تقاصرت رءوس الرجال عن طوال سميدع[٢]

وإن سار كف اللحظ عن كل منظر سواه وغض الصوت عن كل مسمع

فلست ترى إلا إفاضة شاخص إليه بعين أو مشير بإصبع[٣]

ومر بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمديحه محمد بن يوسف الثغري ممدوح أبي تمام الذي كان في مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمي، كما كانف ي مقدمة جيوش المعتصم في غزوه لعمورية، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦. وقد سجل البحتري حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعاً، مجسماً باس جيوشه، وكيف كانوا يتهافتون على الوغي كما يتهافت الفراش على النار، إنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رحاه، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً، وله في تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغري أشعار وقصائد كثيرة، ومن طريف ماله في تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه في الحرب قوله[٤]:

لقد كان ذاك الجاش جاش مسالم على أن ذاك الزي زي محارب

تسرع حتى قال من شهد الوغي لقاء أعاد أم لقاء حبائب

وصاعقة في كفه ينكفي بها على أروس الأقران خمس سحائب

فجأشه مطمئن ونفسه هادئة، حتى ليظن من يراه أنه في سلم وأمن ودعة مع أن الزي زي محارب باسل، وإنه ليقبل على ميادين الحرب إقبال المحب على حمى معشوقته هانئاً مغتبطاً، وإن السيف في يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس، وكأنها خمس سحائب ماتني ترسل عليهم الصواعق المدمرة. والبطل الثاني في ديوان البحتري هو أحمد بن دينار، وقد سجل بطولته في معركة بحرية دمر فيها بأسطوله البيزنطي تدميراً ذريعاً، ومن عجب أن الطبري وغيره من مؤرخي العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة، ولا أشاروا إليها، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل، ولعل في تسجيل البحتري لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يعد في بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة، وفيها يقول البحتري مصوراً

---

[١] الديوان ١٢٣٩/٢.

[٢] السميدع: السيد الكريم الشجاعع.

[٣] الإفاضة: الاتجاه بالبصر.

[٤] الديوان ١٧٨/١.

زحف ابن دينار بمركبه "الميمون" ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطي وجنوده محقاً[١]:

غدوت على الميمون صبحاً وإنما ... غدا المركب الميمون تحت المظفر

وحولك ركابون للهول عاقروا ... كئوس الردي من دراعين وحسر[٢]

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ... ضراب كإيقاد اللظي المتسعر[٣]

يسوقون أسطولاً كأنه سفينه ... سحائب صيف من جهام وممطر[٤]

فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلي ... مقطعة فيهم وهام مطير[٥]

وكل شيء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحتري، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقاً، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة، على مدح أناس جدد[٦]. وقد يكون في ذلك مبالغة، على أننا نجد في الديوان رائية مرددة بين أبي الصقر إسماعيل بن بلبل، والخضر بن أحمد والي الموصل، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها[٧]. ويدخل في هذه الظاهرة عند البحتري ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم، حتى ليبلغهم بهم بعض الرواة أربعين شخصاً[٨]، وقد عرضنا لذلك في غير هذا الموضع، ولا شك في أن في العدد مبالغة.

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة. وإما على كفران صنيعه عند بعض معاصريه، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع. ويلاحظ أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة، ويروي عن ابنه أبي الغوث أن السبب في ذلك أن أباه أحرق هجاءه في الناس خوفاً من مغبة عداوتهم له

---

[١] الديوان ٢/٩٨٢.

[٢] الردي: الموت . الدارع: لابس الدرع . الحاسر: عكس الدارع.

[٣] صهب العثانين: شقر اللحي ، ويريد بهم الروم .

[٤] السحاب الجهام: الذي لا ماء فيه.

[٥] رام يريم عن المكان: زال عنه وفارقه . الطلي: الأعناق . الهام: الرءوس.

[٦] الموشح ص ٣٣٦.

[٧] الديوان ٢/٨٧٠ وما بعدها.

[٨] الموشح ص ٣٣٦.

ولأبنائه، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه[١].

وبالمثل الفخر عند البحتري ضعيف، هو حقاً يفخر في بعض قصائده بآله وعشيرته بحتر وقبيلته طيييء ناعتاً لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة، ولكنه لا يصدر في ذلك عن إيمان قوي بالمجد، وكأنما كانت عصيته القبلية ضعيفة، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضاً ضعيفاً، ومرت بنا في الفصل السالف قصيدته في إيوان كسري وبكاؤه لأمجاد الفرس، وكأنما لم يكن يستشعر شيئاً من لإحساس العميق بالأمجاد العربية في مقابل الأمجاد الفارسية،ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل في إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه، على نحو ما يلقانا في مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان، وله يتوجه بالخطاب قائلاً[٢]:

إن للمهرجان حقاً على كـ ـل كبير من فارس وصغير

عيد آبائك الملوك ذوي التيـ ـجان أهل النهي وأهل الخير[٣]

ويعدد طائفة من هؤلاء الملوك في مقدمتهم يزدجرد ،وكسرى، واردشير، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير. وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحتري، إذ امتدح كثيرين من النصارى على نحو ما مر بنما في غير هذا الموضع.

وذكرنا في الفصل السالف مرثيته للمتوكل، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذي ناصرهم، وقد استهلها بوصف قصر الجعفري الذي قتل به الخليفة وما حل عليه من سواد وكآبة، حتى غدا كأنه مأتم كبير، ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته ثم يصف القتل والقتلة وصفاً مؤثراً. وله مرثية رائعة يرثى بها طائفة من بني حميد الطوسي خروا صرعي في ميادين الثغور دفاعاً عن العرين العربي، وفيهم يقول[٤]:

قبور بأطراف الثغور كأنما مواقعهم منها مواقع أنجم

مضوا يستلذون المنايا حفيظة وحفظاً لذاك السؤود المتقدم

---

[١] الأغاني (طبعة الساسي) ١٦٧/١٨.

[٢] الديوان ٨٨٦/٢.

[٣] الخير: الكرم والشرف.

[٤] الديوان ١٩٤٥/٣.

وكلهم أفضى إليه حمامه أميراً على تدبير جيش عرمرم[١]

مساع عظام ليس يبلى جديدها وإن بليت منهم رمائم أعظم

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء لوطنهم ودينهم بأرواحهم واستبسالاً بعد أن أذاقوا الأعداء كئوس الموت دهاقاً.

واشتهر البحتري بإجادته للغزل، ومر بنا أنه أحب في شابه علوة الحلبية وظلت ذكراها لا تبارحه، وظلت تستولى على قلبه، وكانت قد صبت إليه كما صبا إليها وبادلته وداً بود، ثم تزوجها لذفافي كما أسلفنا، فسلت عنه ،ولكنه لم يسل عنها، وفي ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابه،وإن كنا نظن ظناً أنها منحولة عليه، فقد ظل قلبه لها في سامراء وبغداد كما ارتحل عنها، فهو لا يني يذكرها بمثل قوله في مقدمة مدحة للمعتز[٢]:

كم ليلة فيك بت أسهرها ولوعة في هواك أضمرها

وحرقة والدموع تطفئها ثم يعود الجوي فيسعرها

يا علو على الزمان يعقبنا أيام وصل نظل نشكرها

وكأن السنوات الطويلة التي مضت بين حبه لها في شبابه ومديحه للمعتز وهو في نحو الخمسين من عمره لم تطفئ لوعته وحرقته، فقد ظلت نار شوقه وحبه لها مشتعلة بين جوانحه، وظل يصدر عنها في قطع مفردة وفي مقدمات مدائحه من مثل قوله[٣]:

وخلاف الجميل قولك للذا كر عهد الأحباب صبراً جميلاً

لا تلمه على مواصلة الدمـ ـع فلؤم لوم الخليل الخليلا

على ماء الدموع يخمد ناراً من جوي الحب أو يبل غليلاً

وكانت لدي البحتري قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران، بما أتيح له من دقة في التصوير والتعبير، ولم يكد يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو مسهباً، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور. ومر بنا وصفه الرائع لإيوان كسري ،ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز وفيه يقول[٤]:

---

[١] عرمرم: كثيف .

[٢] الديوان ١٠٧٤/٢.

[٣] الديوان ١٧٦٧/٣.

[٤] الديوان ١٦٤٨/٣.

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المزلة هائل[١]

رفعت لمنخرق الرياح سموكه وزهت عجائب حسنه المتخايل[٢]

وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جنوب سواحل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه نوراً يضيء على الظلام الحافل[٣]

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجري فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصبا الحاني. وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين، وفيها يقول البحتري[٤]:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها[٥]

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها

فرونق الشمس أحياناً يضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها

إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

ويتحدث عن السمك المحصور في البركة والصحن الممتد في أسفلها والبهو الممتد في أعاليها وتمثال الدلفين الذي كان مقاماً عليها، والبساتين والرياض التي تحف بها والأزهار التي تشبه ريش الطواويس في تلاوينها العجيبة. ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحتري الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبة القصور في ثقافته الحديثة، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام والحان خاصة.

---

[١] المزلة: المزلق .

[٢] منخرق الرياح: مهبها . سموكه: أعاليه .

[٣] الحافل: الكثير .

[٤] الديوان ٤/٢٤١٦.

[٥] الآنسات هنا جواري المتوكل وكانت منازلهن تحف بالبركة.

٣

ابن الرومي

هو علي[١] بن العباس بن جريج، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسي. وكان يوناني الأصل كما يشهد بذلك اسم جده، ونراه في شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحياناً من مثل قوله:

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجي ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وقوله في مواليه العباسيين:

مولاهم وغذى نعمتهم والروم- حين تنصني- أصلي

ولم تكن أمة رومية، بل كانت فارسية، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين، وهي نسبة لم يكن عليها حجاب، فكان كثير من الشعراء ذوي الأصول الفارسية يدعونها، ومن فخره بنسبه العريق- في رأيه- من قبل أبيه وأمه قوله:

كيف أغضي على الدنية والفر س خئولي والروم هم أعمامي

وقد ولد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نضوا ضئيلاً نحيلاً دميم الوجه تقتحمه العيون، وظل طوال حياته ينعي على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه، وقه في ذلك أشعار كثيرة يصرح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذي كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة ابداً، وله مقطوعة يصور فيها صلعة وقبح وجهة، ونراه يختمها بقوله[٢]:

---

[١] أنظر ترجمته وأشعاره في مروج الذهب ١٨٢/٤ ، ١٩٤ ، وتاريخ بغداد ٢٣/١٢ والموشح للمرزباني ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٩٦/٣ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ١٨٨/٢، ومرآة الجنان لليافعي ١٩٨/٢ وابن داود في كتاب الزهرة وديوان المعاني للعسكري في مواضع متفرقة (أنظر الفهرس) وابن الروم ي(حياته من شعره) للعقاد وحصاد الهيثم للمازني، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين، والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠٠. واختيارات كامل كيلاني من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومي ولا يزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومي وشعره ترجمة حسين نصار.

[٢] الديوان (مختارات الكيلاني) ص١.

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهي إلا لذي ورع

كي يعبد الله في الفلاة ولا يشهد فيها مساجد الجمع

ويبدو أن أباه كان على شيء من اليسار، وحقاً توفى في مطالع حياته، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش. وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل في الدواوين الحكومية، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها، وابن الرومي في نحو الخمسين من عمره. على كل حال مكن يسار هذه الأسرة لابن الرومي أن يتجه إلى العلم فالتحق ببعض الكتاتيب ،وكانت تعني بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئاً من الحساب، فالتهم ذلك كله الصبي، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء في المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب، وأخرى يستمع إلى بعض المحدثين أو بعض الفقهاء و بعض رواة التاريخ والأخبار. وكانت دار الحكمة التي عنى بها الرشيد والمأمون مد يده وعينه، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضاً يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلاً نادراً[١]. وتكثر في أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم. ومما لا ريب فيه أنه كان– كما مر بنا في غير هذا الموضع– يعتنق الاعتزال .

ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب، وسنرى أثر ذلك في أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجياً لهم، ويذكر معاصروه أيضاً أن من كان يلقاه يراه كالمتوجس المذعور، وكأنما كان في أعصابه شيء من الاختلال، ولعل ذلك هو الذي أعده لأن يصبح أكبر شاعر متطير في عصره. وكان إذا روجع في كثرة تطيره احتج بقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة، أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده،ويقول إن عليا لم يكن يغزو غزاة والقمر في برج العقرب، وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها[٢]. ويقص معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لم تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فيرى جاراً له أحدب كان نازلاً بإزائه يقعد على الباب. فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب[٣]. وافتقده في مجلسه بعض الأمراء، وكان يعلم حاله من الطيرة، فأرسل له غلاماً يسمى إقبالاً ليتفاءل به عند سماع اسمه، غير أنه لم يكد يعزم

---

[١] أشار أبو العلاء في رسالة الغفران إلى تفلسف ابن الرومي قائلاً إنه كان يتعاطى الفلسفة. أنظر طبعة كيلاني ٧٤/٢.

[٢] زهر الآداب للحصري ١٧٢/٢.

[٣] زهر الآداب ١٧٧/٢.

على المضي معه حتى بدا له اسمه بعض الأصدقاء غلاماً له يسمى حسناً، وكان حسن الوجه، طالباً إليه أن يزوره، فخرج معه، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف، هكذا: لا، وحانت منه التفاته فرأى تحت الدرفتين نوى تمر، فتطير، وقال إن هذا يشير على: أن "لا تمر" ورجع على داره ولم يذهب مع الغلام[١]. ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة، وقد يكون بعضها اختلق عليه اختلاقاً. ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوابه الكاتب، وكان قد دعاه لزيارته في سامراء، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد براً وبحراً بمثل قوله[٢]:

لقيت من البر التباريح بعد ما لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيها متفكها، فأدخلوا ذلك في باب طيرته، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة. وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفي تطيره، إنما ننفي المبالغة فيه، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومي يتطير حقاً، واشتهر بذلك بين معاصريه، حتى لنرى الأخفش على بن سليمان النحوي، وكان قد هجاه، يقتص لنفسه منه، بأن يقرع عليه الباب في الصباح، فإذا قال من القارع؟ أجابه بمثل مرة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التي تملؤه طيرة، فيحبس نفسه في بيته، ولا يخرج يومه أجمع[٣].

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وهو لا يزال حدثاً في الكتاب، إذ تروى له أبيات حينئذ في هجاء غلام عباسي يسمى جعفراً كان زميلاً له، وكأن ذلك كان إرهاصاً بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته. وقد مضى يتخذ الشعر – كلداته– حرفة يتكسب بها، فهو يعرضه على علية أهل بغداد، وكان طبيعياً أن يعرضه على كبار رجال الدولة وفي مقدمتهم أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذي قضى على ثورة الأمين، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميراً لخراسان وخلفه عليها ابنه طاهر. وحاول ابن الرومي الزلفي إلى محمد بالمديح، ويبدو أنه لم يكن يتسع في ثوابه ومكافأته، وكان على علم بالشعر، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومي، وغاظ الشاعر الشاب نقده. بل لقد أخذ يحرمه نواله، مما جعل ابن الرومي يوجه إليه مثل قوله[٤]:

---

[١] أنظر في هذه الأخبار زهر الآداب وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيق ٤٠/١ ومعاهد التنصيص ١٤٣/١.

[٢] انظر القصيدة في الديوان ص٢.

[٣] ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد التنصيص ٤٣/١.

[٤] الديوان ص ٤٣٨.

مدحت أبا العباس أطلب رفده فخيبني م رفده وهجا شعري

ويبدو أنه كان بخيلاً، وأن بخله كان السبب الحقيقي في انصرافه عن الشاعر، متعللا بأنه لا يعجب بشعره، مما جعل ابن الرومي يصب عليه سياطاً حامية من الهجاء، وهو يعم فلا يقف بهجائه له عنده وحده، بل يعم به أسرة الطارهيين جميعاً من مثل قوله[١]:

إذا حسنت أخلاق قوم فبئسما خلفتم به أسلافكم آل طاهر

جنوا لكم أن تمدحوا وجنيتم لموتاكم أن يشتموا في المقابر

وترنوا عينه إلى سامراء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة وزرائها وموظفيها العظام، ويقدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨، ويمدح أحمد بن الخصيب وزيره، ويعود سريعاً إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه. وقد يكون السبب الحقيقي في ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيع فيه كان يضمره في نفسه، فتركها وعاد غل مسقط رأسه. ولا يلبث يحيى بن عمر العلوي أن ينهض بثورة عارمة في الكوفة ضد الدولة، وبجند جيشاً كثيفاً لحرب العباسيين، ويلتقي به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠، وتدور عليه الدوائر، ويقتل في ساحة المعركة ويغضب له ابن الرومي غضباً شديداً، ويرثي بجيمية[٢] طويلة، يندبه فيها ندباً حاراً، مصوراً حرقة حزنه عليه بمثل قوله:

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج[٣]

ويا أسفي أن لا يرد تحية سوى أرج من طيب نشرك يأرج

الا إنما ناح الحمائم بعد ما ثويت وكانت قبل ذلك تهزج

ولا يبكيه وحده، بل يبكي العلويين جميعاً منذ شهيدهم الحسين المقتول في كربلاء، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه في عليين، ويأسى أن يكون للعلويين دائماً قتيل مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أي رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته، ويتناول العباسيين في جرأة، ويتوعدهم أن يرد الأمر على نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله، على يد علوي ثائر، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطماً. ويتوجه على محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنياً أن تزول دولته ودولة آلة في خراسان، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعاً، وأن دولتهم لابد أن تدول وتمحق محقاً فينطفئ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة.

---

[١] الديوان ص ٣٩٦.

[٢] الديوان ص ٢٢٤.

[٣] سجسج: معتدل بين الحر والبرد.

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومي يجاهر بتشيعه، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقي في أنه لم يحاول المثول بين يدي لخلفاء مادحاً، وبالتالي لم يظهر في مجالسهم بسامراء، ومع ذلك كان كثير التردد عليها، ولكنه لم يكن يتجاوز عتبة الوزراء، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه، ويشير الطبري إلى ذلك بقوله: إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام[١]. ونمضي مع ابن الرومي بعد مرثيته الشيعية الآنفة الذكر، فنجده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين، ووقعت الحب بينه– ومعه أهل بغداد– وبين المعتز الذي بايعه الترك والجند في سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد، ويحارب معهم جند المعتز وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرمي وابن طاهر، وبدا في نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز، فنجح ابن طاهر على الصلح وخلع المستعين وانتهت الأمور بعزله ثم قتله في سنة ٢٥٢. ويغب ابن الرومي ولكن كأنما ذلك هو كان سابه عارضة، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفي سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله[٢]:

إن المنية لا تبقى على أحد ولا تهاب أخا عز ولا حشد

وفيها يشيد بكرمه وعدله في الرعية واصفاً حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات. ويتولى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدباً، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدونة.وهو أقرب ممدوحي ابن الرومي إلى نفسه، فقد أغدق عليه جوائز وأموالاً كثيرة، وكان شاعراً، يحسن فهم الشعر وتذوقه، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ومر بنا تعرضه للبحتري ووقوفه ضده مع ابن الرومي ممثلاً للذوق الجديد في الشعر لعصره. ووجد فيه ابن الرومي راعيه الحقيقي، راعيه المادي الذي يجزل له في العطاء وراعيه المعنوي الذي ينوه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحساناً، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبي المحافظ من أمثال البحتري. وهكذا وجد عند كل ما كان يبتغيه لنفسه، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة، فكان يصحب معه ابن الرومي. ونراه يمدح أحمد بن إسرائيل ووزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرف في هذه الأثناء بأبي العباس أحمد بن ثوابه كاتب القائد التركي بايكباك لعهد المعتز والمهتدي، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل، وهو كاتب نابه، ومرت بنا إشارة إلى مدحة له نظما حين دعاه لزيارته في سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة براً وبحراً، آملاً أن تصله مكافأته في بغداد، ولا تمضي صلته بابن ثوابة إلى نهاية

---

[١] الطبري ٩/٢٨٤.

[٢] الديوان ص ٥٠.

الطريق[١]. وهكذا هو دائماً سرعان ما يتغير على ممدوحيه، إما لقلة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه، وإما لأنه تخيل أي شيء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون. ويتعرف عنده على أبي الحسن بن علي الباقطائي كاتبه ونراه يعاتبه لتقديمه البحتري عليه[٢]. وأهم من ابن ثوابة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان، وسنراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد. ويتردد على واسط ليمدح آل أبي الشيخ.

ويعزل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولي مكانه أخوه سليمان، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوي بعد حروب ومعارك طاحنة، وكأنما أعطى بغداد مكافأة له على هزيمته!. ويقف ابن الرومي في صف عبيد الله، ويعجب كيف يعزل ويولي مكانه هارب، وكأنما يجزي بذلك خير الجزاء، أو قل كأنما هي غنيمة نالها ببأسه وشجاعته، وإنه لخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام في الحروب، ويسخر منه في مقطوعات مختلفة من مثل قوله[٣]:

هو الأسد الورد في قصره ولكنه ثعلب المعركة

ويحدث أن يجمع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبايعوه بالخلافة، ويبعث، وكأنما يجد ابن الرومي في ذل نكثاً من سليمان لبيعته للمعتز، فيصليه بقطعة من هجائه قائلاً[٤]:

جاء سليمان بن طاهر فاجتاح معتز بني المعتص

كأن بغداد لدن أبصرت طلعته نائحة تلتدم

مستقبل منه ومستدبر وه بخيل وقفا منهزم

وتتطور الظروف، ويجبي المعتز قواد الأتراك إلى الخلع، ويحبس ويقتل في محبسه بعد خلعه بستة أيام، وحينئذ نرى ابن الرومي يغير موقف من المعتز فيحذره حين حبس من أن يعاوده التفكير في الخلافة، وينظم في ذلك قصيدة بائية يقول فيها[٥]:

---

[١] أنظر مدحته له في الديوان ص٦١.

[٢] الديوان ص ٢١٧.

[٣] الديوان ص ٣٤١. والورد: الجريء.

[٤] الديوان ص٢٨.

[٥] الديوان ص ٤٥١.

دع الخلافة يا معتز من كثب فليس يكسوك منها الله ما سلبا

ويتغير تبعاً لذلك موقف ابن الرومي من سليمان بن عبد الله بن طاهر، ويهديه بعض مدائحه، ويمنحه سليمان بعض الجوائز، ثم يحدث أن جاراً ماكراً له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبي كالم تطمح فسه إلى شراء داره، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها، فيستعدي عليه سليمان[١] بن عبد الله بكافية طريف سبق أن أنشدنا منها في الفصل الماضي تعليله المشهور فيها لمحبة الأوطان، وهو يدور على كل لسان، وفيها يقول مصراً على أن لن يبيع داره:

ولي وطن آليت أن لا أبيعه وأن لا يرى غيري له الدهر مالكا

ولوح سليمان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالجبن والبخل، وان جده طاهر يلقب بذي اليمينين، فقال فيما قال من هجائه:

له شمالان حاز إرثهما عن ذي اليمينين شد ما اختلفا

ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذي كان يعد الحاكم الحقيقي حينئذ، إذ قلم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار هزيمة نكراء، ودان له الولاة: الطولونيون وغيرهم مذعنين خاضعين، وكان يتخذ صاعد بن مخلد كاتباً له، ورفعه إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتد يمنه حينذاك إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد ووواليها تابعين له، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم بغداد سنة ٢٥٩ وظل يحكمها ثلاث سنوات، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١. وأقبلت الدنيا على ابن الرومي مع إقبالها على صديقه عبيد الله. فكانت تلك السنوات أهنأ أيامه، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة: مع أعياد النيروز والمهرجان ومع عيدي الفطر والأضحى. وفي ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه العلاء، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما، وله فيهما دالية[٢] طويلة. وفيهما يقول:

وكل مديح لم يكن في ابن صاعد ولا في أبيه صاعد فهو حابط

---

[١] أنظر زهر الآداب ٣/٩٩.

[٢] الديوان ص ٣٩٠.

وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحتري تمتد، وانقسم الأدباء قسمين: قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين، وهم أنصار البحتري، وقسماً مقابلاً هو أنصار ابن الرومي وفي مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا، ونرى ابن الرومي يهجو خصمه ببائيه طويلة[١] يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال البحتري ما نال من الشهرة بشعره الغث في رأيه، ويزعم أنه ليس له فيه شيء فكله إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه، ويستعدي عليه- كما مر بنا في غير هذا الموضوع- العلاء بن صاعد الذي أمن الطرق من اللصوص قائلاً:

أيسرق البحتري الناس شعرهم جهراً وأنت نكال اللص ذي الريب

يعيب شعري وما زالت بصيرته عمياء عن كل نور ساطع اللهب

وفي البيت الثاني ما يدل على أن البحتري كان بدوره يبادله نقداً لشعره، وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مر بنا، وأصلى البحتري أشعاراً حامية، نعي فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومي الذي لا يلحق شأوه، والذي تعمق الفلسفة والمنطق. ورد عليه البحتري كما أسلفنا في حديثنا عنه. وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربلي، فتصافيا وتواد واعترف كل منهما بفضل صاحبه.

ومن الغريب أن ابن الرومي لم يكن يستطيع أن يبقى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير، فقد كان يكفي كل منهما ألا ينفذ إليه الجائزة أو يقلل منها، فإذا هو خصم لدود، وإذا هو يبسل لسانه عليه ويبري شعره سهاماً مدمية. وهو ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء، فقد أخذا يهملان نواله على مدائحهما بعض الإهمال واستشاط غضباً، وأخذ ينزل عليهما شواظ هجائه من مثل قوله[٢]:

ليهنكم أن ليس يوجد منكم لبوس ثياب المجد لكن خلوعها

وظل يتشفى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما في غياهب السجون سنة ٢٧٢. وكان يتصل ببعض كبار موظفي الدولة، وكان منهم من يتعصب للبحتري فكانوا يردونه رداً قبيحاً، وقد يهملونه ولا ينيلونه أي عطاء على ما يقدم إليهم من المدائح ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحتري وصديقه الذي ولي ديوان الرسائل حيناً وتولى ولايات مختلفة. وكان قد اشترك- كما مر بنا في الحديث عن البحتري- في حرب الزنج، ومدحه ابن الرومي فلم يلتفت

---

[١] الديوان ص ٣٤.

[٢] الديوان ص ٥١.

إليه، وتصادف أن كان يلي خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلا بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا، وأصابته شَجَّة في وجهه، واسر، واستطاع التخلص من أسره، ونرى ابن الرومي يشمت به، ويسجل عليه جبنه وبخله في قصائد ومقطوعات مختلفة، وله يقول[١]:

قل لي بأية حيلة أعملتها هتفوا بأنك- لا حفظت- جواد

لقد استفاض لك الثناء بحيلة صعب الأمور بمثلها ينقاد

ومر بنا أنه تعرف على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع في سامراء، وظل منذ هذا الحين موصولاً به، وكان الموفق قربه منه واتخذه كاتباً له، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون في سامراء، أو مع الموفق في واسط في أثناء معاركه مع الزنج. ورفعه الموفق إلى مرتبة الوزراء فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده ليه ولأخيه المعتمد، وفرح ابن الرومي بما ناله، فدبج فيه قصيدة طويلة[٢]، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقه جديدة، غذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما في الحدائق من فواكه شهية، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أي حانوت الفواكه، ومضى بعد ذلك في مديح أبي الصقر مدحاً رائعاً، غير أنه لما استمع إلى قوله:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمري ولكن منه شيبان

ظن أنه يعرض به، لأنه كان يدعي نسبة من شيبان ولم يكن شيبانياً حقيقة فقال: هجاني، وراجعه بعض الحاضرين قائلاً له: إن هذا من أحسن المدح، إلا تسمع ما بعده:

وكم أب قد علا بابن ذري شرف كما علت برسول الله عدنان

فقال: أنا بشيبان، وليست شيبان بي، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومي، فقيل له: ألم تسمعه يقول:

ولم أقصر بشيبان التي بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان

لله شيبان قوم لا يشوبهم روع إذا الروع شابت منه ولدان

فاستمر في غيه وسوء فهمه، وقال: والله لا أثيبه على هذا الشعر[٣]. وواضح أنا أبا الصقر لم يفهم معاني القصيدة ولا مراد ابن الرومي في البيت الأول وغيره من الأبيات، فكان طبيعياً أن يحرمه الجائزة، وكأنه أيضاً لم يفهم قوله في القصيدة مادحاً له:

---

[١] الديوان ص٦٦.

[٢] الديوان ص ٢٠.

[٣] زهر الآداب ٢٤٤/١ وما بعدها.

فرد جميع يراه كل ذي بصر　　كأنه الناس طراً وهو إنسان

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومي بقدر ما كان حرباً على ابن بلبل فقد أخذ يهجوه ابن الرومي هجاء مراً ساخراً من ادعائه أنه شيباني حقيقة، مثبتاً عليه أنه دعى في شيبان لصيق بها، يقول ساخراً هازئاً به[١]:

تشيبن حين هم بأن يشيبا　　لقد غلط الفتى غلطاً عجيبا؟

ومضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم، غذ يدعى النسب فيها أعجمي نبطي، وينعي كيمياء الحظوظ التي أتاحت له مجد الوزارة. ويظل يهجوه حتى يزج به المعتضد في السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت في سجنه، وابن الرومي في أثناء هذه النكبة التي حلت به يهجوه أهاجي كثيرة من مثل قوله[٢]:

فلئن نكبت لطالما نكبت　　بك همة لجأت إلى سندك

يا نعمة ولت غضارتها　　ما كان أقبح كسنها بيدك

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها- كما مر بنا- في سنة ٢٦٦ فكان يكتفي بالمعيشة في ظلاله. وكانت العلاقة بينهما- كما أسلفنا مراراً- وثيقة، ووظف له أخوه محمد في بعض فترات حكمه لبغداد. ومات وهو في خدمته وماتت قبله بمدة أمه، وله فيهما مرثيتان.

وكان طبيعياً أن يكثر مديحه لبعض ذوي البيوتات في بغداد وفيما حولها من المدن والضواحي، وممن نراهم ماثلين في ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة في دير العاقول بالقرب من بغداد، وتمثل في ديوانه أسرة بني نوبخت الفارسية الأصل، وهي تشتهر من قديم بثقافة أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية، وأهم شخص يكثر من مدحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن علي، وكان من رءوس الشيعة، ويقال إنه مؤسس الفرقة الأثنى عشرية، وفي صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إمامياً يعتنق مذهب الأثنى عشرية. ومن الأسر التي أكثر من مدحها أسرة بني حماد قضاة بغداد، خاصة منهم القاضي إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه في قصيدة بائية محاولاً أن يبرئ نفسه من تهمته بالزندقة التي نقلت إليه، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضي يعرفان حقيقة أمره، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبروا

---

[١] الديوان ص ٤٨.

[٢] زهر الآداب ٢٤٤/١ وما بعدها.

اتهامه بهذه التهمة النكراء، ويقول إنهم هم الذين دبروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترمى دارك بالحصى والحجارة، يقول[١]:

حملوا حملة على الدين تحكي ... حملة الروم رافعين الصليبا

وأرادوا بك العظيمة لكن ... أوسع الله سعيهم تخييب

وكأن الغوغاء لما تغاووا ... فرموا داركم قضوا تحصيبا[٢]

زعموا أن ذاك غزو وحج ... تبب الله أمرهم تتبيبا

ولم ترو كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضي، ولعل في ذلك ما يدل على أن الشعر في هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة، على نحو ما مر بنا عند البحتري وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطي وحرقه، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف. وتتردد في الديوان أسماء أصدقاء كثيرين في مقدمتهم أبو عثمان الناجم روايته، وقد حضر موته، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المرثدي وكان كتباً في ديوان الموفق وابن عمار[٣]، وكان شاعراً ومن نقده الشعر في عصره. وأكثر قصائده التي وجه بها إلى المرثدي يطلب إليها فيها بعض السمك، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها، فبعث إليه يوم سبت بهدية منه، ولم يرسل السبت التالي. فكتب إليه قصيدة يقول فيها[٤]:

ما لحيتاننا جفتنا وأنى ... أخلف الزائرون منتظريهم

قد سبتنا وما أتتنا وكانوا ... يوم لا يسبتون لا تأتيهم

ومن الشخصيات التي ظل يمدحها طويلاً على بن يحيى المنجم، وهو من كبار المثقفين في عصره، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة، وكان شاعراً ونديماً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد، ولا يعرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومي به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة، وله يعاتبه[٥]:

لتهنأ رجال لا تزال تجودهم ... سحائب من كلتا يديك مواطر

---

[١] الديوان ص ٣٠٩.

[٢] التحصيب نا: رمى الجمار بمنى.

[٣] أنظر توصيته لأبي سهل بن نوبخت به في الديوان ص ١٢٣.

[٤] ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩.

[٥] الديوان ص ٣٤٢.

عنيت بهم حتى كأنك والد　　لهم وهم- دوني- بنوك الأصاغر

وممن تدور أسماؤهم في ديوانه جحظة، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل، وكان ينادم المعتمد، وهو نديم من نوع آخر غير نوع علي بن يحيى المنجم، نديم مضحك، يتخذ للهزؤ به والفكاهة. وان يصطدم بكثير من الشعراء في عصره فيكويهم بأهاجيه، وفي مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطي، وإبراهيم البيهقي شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وأبو حفص الوراق، وابن أبي طاهر وابن الخبازة وخالد القحطبي، فقد كان يشب مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس، وكان دائماً هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله. وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف في صف البحتري ضده، وتبعه تلميذه الأخفش في هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه في شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا، وممن كان يعيب شعره نفطويه النحوي، ولذلك لم يسلم من أهاجيه.

ويظله عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما. ويكثر من ذكر المعتضد في قصائد ومقطوعات مختلفة، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر، وفي رأينا أنه هو السبب الأهم في أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورون عنه اضطراراً لما ضاع من تشيعه. ونرى ابن الرومي يتعرض في أشعاره له لبسالته في حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الخراج إلى الحدي عشر من حزيران وسماه النيروز المعتضدي قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية- كما مر بنا في غير هذا الموضع- وكان عملاً جليلاً. ويذكر بسالته في صيد الأسد، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قطر الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول في هذه المناسبة[1]:

يا سيد العرب الذي زفت له　　باليمن والبركات سيدة العجم

اسعد بها كسعودها بك إنها　　ظفرت بما فوق المطالب والهمم

ظفرت بملئى ناظريها بهجة　　وضميرها نبلا وكفيها كرم

شمس الضحى زفت إلى بدر الدجى　　فتكشفت بهما عن الدنيا ظلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع على أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتباً مجيداً، ومدبراً لشئون الدولة حصيفاً، وكن له أخ يسمى وهباً مدحه ابن الرومي في

---

[1] مروج الذهب للمسعودي ١٨٢/٤.

غير قصيدة كما مدح ابنيه الحسن والقاسم، وهو يهلل طويلاً لمجيء دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله في مديح عبيد الله[١]:

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا ... لم يحمد الأجودان: البحر والمطر

وإن مضى رأيه أو حد عزمته ... تأخر الماضيان: السيف والقدر

وإن أضاءت لنا أضواء غرته ... تضاءل النيران: الشمس والقمر

ينال بالظن ما يعيي العيان به ... والشاهدان عليه: العين والأثر

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك أخذ يوليه بعض المناصب وهو صغير، وكان إذا غاب أنابه عنه. وكن يعطف على ابن الرومي قبل تولي أبيه الوزيراة، ويقال إنه كان يجري عليه راتباً، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يجزل له في العطاء، مما جعل ابن الرومي يصفيه مديحاً رائعاً. ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تعاود ابن الرومي طبيعته، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه والحاجة المتكرر على العطاء، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما، فحاولا إبعاده، وشعر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما، وازداد الأمر – فيما يبدو – سواءً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً، فأخذ يستعطفهما، غير أنهم لم يصيخا له، على الرغم من استصراخهما لبؤسه، وعبثاً يناديهم ألا يضنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب حينئذ يفزع إلى قوسه القديم، قوس الهجاء المرير، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله[٢]:

تسميتم فينا ملوكاً وأنتم ... عبيد لما تحوي بطون المزاود

لكم نعمة أضحت بضيق صدوركم ... مبرأة من كل مثن وحامد

فإن هي زالت عنكم فزوالها ... يجدد إنعاماً على كل ماجد

ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رأبه.

وتتردد في الديوان بأخرة من حياة ابن الرومي شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم في عهد المقتدر، كما تتردد أسماء شخصيا كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائي والي الكوفة العهد المعتمد، ويبدو أنه ظل متصلاً به حتى أواخر حياته. ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثقي صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذي نعى عليه بخله

---

[١] ابن الرومي للعقاد (نشر المكتبة التجارية) ص٢٦٥.

[٢] الديوان ص ٣٩٦ – ٣٩٧ وانظر مقطوعة في كتاب ابن الرومي لروفون جيست ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشييد الكنائس وهدم المساجد.

بمقطوعات ساخرة، وكاتب مسيحي للقاسم يسمى عمراً، وله فيه أهاج تقطر سماً زعافاً، وابن فراس وكان فيما يبدو لغوياً.

ويغص الديوان بأسماء كثيرة من الجواري القيان المطربات مثل بستان ولنار وبدعة وشاجي ودريرة وغناء ووحيد ومظلومة وظلوم، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله، وكان بجوارهن قينات وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن، مثل شُنْطف، وفيها يقول[١]:

وإن سكوتها عندي لبشرى	وإن غناءها عندي لمنعي
فقرطها بعقرب شهر زور	إذا غنت وطوقها بأفعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً في الأكل نهماً شديداً، ولذلك يكثر في أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض، كما يكثر وصفه الأشربة، ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن القاسم بن عبيد الله دس إليه السم في خشكنانجة، فلما ازدردها أحس بالسم في بطنه فقام مسرعاً؛ فقال له القاسم إلى أين؟ فأجابه إلى حيث أرسلتني، فقال له: سلم على والدي عبيد الله، فأجابه: ما طريقي على النار. والصحي أنه توفى عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه، وهي على كل حال سن عالية.

ولابن الرومي ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف سليم جزءين، ونشر منه كامل كيلاني مختارات باسم ديوان ابن الرومي، وهو الذي نرجع إليه غالباً. ومن يتصفح ما نشر منه يلاحظ توأ أنه يختلف عن دواوين الشعر العربي التي عاصرته وسبقته، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومتع الحياة، وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطرد والقنص وعن المسرات والآلام، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية. ومع ذلك سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربي، مع ملاحظة ما يمتاز به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبة. ومر بنا في الفصل الماضي تصويره من بعض الوجوه لذخائره العقلية، وكيف أداه اعتزاله مبكراً إلى أن يتمثل جميع الثقافات في عصره فلسفية وغير فلسفية. وإذا هو يستقصى المعاني استقصاء نادراً حتى لا يكاد ترك في معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها، وإذا هو يوغل في الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها، فتبدو في أضواء واضحة وضوحاً مطلقاً، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير في سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء

---

(١) الديوان ص ١٠٥.

والظلال العقلية. وهو بحق يمثل النزعة التجديدية في العصر، على حين كان البحتري يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

وأول ما نقف عنده المديح، وبعض قصائده فيه يطول طولاً مسرفاً حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت، وعادة يقدم لمدائحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات، ولكنه ينوع فيها، فقد يختار النسيب مثلاً، ولكنه يتحول به كما في قصيدته النونية[١] التي مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان في المرأة، حتى سمى بعض معاصريه- كما أسلفنا- القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة. ويقد يختار وصف[٢] الطبيعة والربيع ويبدع في وصفه، غذ كان مفتوناً بها فتنة العاشقين الوالهين، مما يميزه بحق عن شعراء العربية. وقد يدمج في القصيدة وصف[٣] مجلس سماع؛ فيصور آلات الطرب ومن يحملنها من القيان في صور بديعة على نحو ما يلقانا في نونيته التي مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، والتي يفتتحها بقوله:

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان

وقد أنشدنا منها قطعة في الفصل الماضي. ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخمر. وقد يختار بكاء الشباب الذي طالما تغنى به الشاعر العربي، ولكنه يعرضه عرضاً جديداً على نحو ما نرى في مقدمة قصيدته البائية[٤] التي مدح بها على بن يحيى المنجم، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كئيباً على الشباب من شأنه أن يبكي صاحبه بدموع غزار، ثم أخذ يصور سخرية الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لاذعاً. ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار والوقوف عند عشرات الأبيات لا عند المئات- وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً نحو مائية بيت- ويتفنن بعد ذلك في المديح، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن الشعراء فيه يبالغون ويفرطون في مبالغاتهم فينسبون على الممدوحين ما لا يفعلون، مسبة لا تمحي وعار ما بعده عار، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى: (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) ويستوحي ابن الرومي الآيات قائلاً[٥]:

يقولون مالا يفعلون مسبة من الله مسبوب بها الشعراء

---

[١] الديوان ص ٢٠.

[٢] الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل كيلاني المقدمة وحدها دون المديح.

[٣] الديوان ص ٨٤.

[٤] الديوان ص ١٧٧.

[٥] الديوان ص ٣٧٦.

وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأمراء

فهم يقولون مالا يفعلون، وليس ذلك فحسب، بل يقولون أيضاً ما لا يفعل الأمراء، كذباً وبهتاناً. وكأن ابن الرومي أحس في قوة ما كان يحمله المديح لعصره من كذب صراح. وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنويع في مقدمات المديح فإننا نلاحظ أنه حاول التنويع في المديح نفسه، فإنه لم يقصره على المعاني المطروقة، ويوضح ذلك مديحه لعلي بن يحيى المنجم في بائيته التي أشرنا إليها. آنفاً، فإنه مضى فيها يمدحه على هذه الشاكلة:

لوذعى له فؤاد ذكي ماله في ذكائه من ضريب

ألمعي يرى بأول ظن آخر الأمر من وراء المغيب

لا يروي ولا يقلب كفا وأكف الرجال في تقليب

حازم الرأي ليس عن طول تجربـ ـب لبيب وليس عن تلبيب[١]

يتغابى لهم وليس لموق بل للب يفوق لب اللبيب

لين عطفه فإن ريم منه مكسر العود كان جد صليب

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف، مديح بالطباع والشمائل والملكات؛ فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب، دون إبطاء في الرأي أو ندم يلحقه، وهو حازم لبيب بالفطرة، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابي، ويبدو لين الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة ومصدر هذا الجانب في مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعاني واستقصائها، وكانت له قدرة خارقة أيضا على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله في حساد صاعد مصوراً مدده الوطيد[٢]:

وضد لكم لا زال يسفل جده ولا برحت أنفاسه تتصعد

ولو قاس باستحقاقكم ما منحتم لأطفأ ناراً في الحشا تتوقع

وآنق من عقد العقيلة جيدها وأحسن من سربالها المتجرد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته في مثل هذه الأقيسة، فصاعد يستحق مجداً عظيماً فوق ما منح من مجد الوزارة الذي أسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره، وما مثل الوزارة

---

[١] تلبيب: تكلف اللبابة عن غير طبع وفطرة

[٢] زهر الآداب ١٨٣/١ وانظر المختار من شعر بشار للتجيبي (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٧٠

بالقياس إليه إلا مثل العقد في الجيد الجميل جمالاً يفوقه، بل مثل الثوب يضفي على الجسد الفاتن ويجمع بين جمال الخلقة والأخلاق في بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة[١]:

كل الخصال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلق

كأنكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره، طيب على طيب، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة في مديحه كقوله في بعض ممدوحيه:

أوفي بأعلى رتبة وتواضعت آلاؤه فأحطن بالأعناق

كالشمس في كبد السماء محلها وشعاعها في سائر الآفاق

والهجاء فنه الذي لا يباري فيه، وهو يتخذ عنده لونين: لوناً قاتماً كله إقذاع وسب وهتك للأعراض وقد يطيل فيه إلى مئات من الأبيات، ولوناً زاهياً ينحو فيه منحى السخرية والإضحاك، وهو اللون الأهم في هجائه، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه، أما الهجاء الساخر فقد نماه على أبعد حد تسعفه في ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية في مهجويه، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير إبرازاً مضحكاً في كل صورة، وكذلك كن ابن الرومي هجاء ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً، ومر بنا في الفصل الماضي تصويره لشح عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتي أنفسه بخلاً وحرصاً، وكذلك تصويره لبعض مهجويه بحيوانات مجترة، ولم يعجبه بعض المغنين فصوره في تحرك فكيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكيه لأكل طعامه. ومر بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحدب، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه[٢]:

قصرت أخادعه وغاب قذاله فكأنه متربص أن يصفعا

وكأنما صفعت قفاه مرة وأحس ثانية لها فتجمعا

فجعله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقي صفعه بتجميع قفاه إلى ظهره، وكانت تؤذيه اللحى حين تخرج عن مقدارها الطبيعي فيهجوها ويهجو أصحابها هجاء ساخراً مضحكاً، وله فيها

---

[١] زهر الآداب ١٤٦/٤

[٢] الديوان ص ١٤٦.

مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة، ومن أطرافها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله في لحية بعض مهجويه[١]:

إن تطل لحية عليك وتعرض ... فالمخالي معروفة للحمير

علق الله في عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير

أرع منها الموسى فإنك منها ... يشهد الله في أثام كبير

ما تلقاك كوسج قط إلا ... جور الله أيما تجوير

لحية أهمل فطالت وفاضت ... فإليها تشير كف المشير

ما رأتها عين امرئ ما رأتها ... قط إلا أهل بالتكبير

روعة تستخفه لم يرعها ... من رأى وجه منكر ونكير

فاتق الله ذا الجلال وغير ... منكراً فيك ممكن التغيير

أو فقصر منها فحسبك منها ... نصف شبر علامة التذكير

لو رأى مثلها النبي لأجرى ... في لحي الناس سنة التقصير

واستحب الإحفاء فيهن والحـ ... ـق مكان الإعفاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومي المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخلاة حمار ولكن بدون شعير، ونصح صاحبها أن يجعل الموسى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها، وجعل محافظتا عليها إثماً كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم في قسمة الأرزاق وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين، بل إنهم ليصيحون الله أكبر، للروعة الشديدة التي تأخذهم، وإنها لأكثر هولا من وجه ملكي القبر: منكر ونكير، ويدعوه أن يتقي الله ويغير هذا المنكر الذي يحمله على وجهه في ذهابه وغيابه، أو ليقصرها، فنصف شبر منها كاف على التذكير والرجولة، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبد السنة فلم يجعلها تطويل اللحى بل جعلها تقصيرها، بل لعله كان يجعل السنة قصها ومحوها محواً. وهو يشير في البيت الأخير إلى الحديث النبوي: "احفوا الشوارب واعفوا اللحى". وكان كاتب مسيحي للقاسم بن عبيد الله يسمى عمراً كثيراً ما كان يحجبه، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه[٢]. وكان لا يزال يلمح العيوب الجسدية في مهجوية، عابثاً بهم عبثاً كله سخرية وفكاهة وتندير.

---

[١] ديوان المعاني للعسكري ١/٢١٠.

[٢] الديوان ص ٢٤٠.

وكان ابن الرومي يجيد فن الرثاء، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر، وأيضاً فإنه كان يستشعر في أعماقه حزناً ممضاً، لأنه لا يأخذ حقوقه في عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقاً واضحاً، فكان شعوره بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزاناً ومآتم، وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء، فبكاهم بكاء حاراً، ومر بنا في الفصل الماضي بكاؤه على ابنه الأوسط الذي مات منزوفاً وهو لا يزال في المهد طفلاً صبياً، وقد نصب بقصيدته له مأتماً كبيراً صور فيه موته ونزيفه تصويراً محزناً، ثم بكاه بكاء مراً. ومن قوله في رثاء ابنه الثالث[١]:

أبني إنك والعزاء معاً ... بالأمس لف عليكما كفن

ما في النهار – وقد فقدتك – من ... أنس ولا في الليل لي سكن

ما أصبحت دنياي لي وطناً ... بل حيث دارك عندي الوطن

ومر بنا أن له مرثية في أمه وأخرى في أخيه محمد، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين إلى حين، وأسلفنا في الفصل الماضي عزاءه في ابنة علي بن يحيى المنجم، وله عزاء مشابه للمسيبي الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن يخلد في الدنيا، وأن تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته، يقول[٢]:

أصبت وما للعبد عن حكم ربه ... محيص وأمر الله أعلى وأقهر

تعزيت عمن أثمرتك حياته ... ووشك التعزي عن ثمارك أجدر

فلا تهلكن حزناً على ابنه جنةً ... غدت وهي عند الله تحيا وتحبر

وكان ما يني ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى في الموت، ولعله أول من حبب الموت إلى غيره، وكأنما كان يراه خلاصاً من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه، مما جعله يقول[٣]:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا ... للموت ألف فضيلة لا تعرف

فيه أمان لقائه بلقائه ... وفراق كل معاشر لا ينصف

---

[١] الديوان ص٣١.

[٢] الديوان ص ١٠٤ وتحبر: تلبس الوشي والزينة.

[٣] ديوان المعاني ١٧٢/٣.

وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروع بلقائه من أدق ما يمكن، وهو لا يباري في النفوذ إلى كثير من المعاني والأحاسيس الدقيقة. وقد عرضنا في الفصل الماضي مرثيته الملتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها.

ويكثر العتاب في ديوان ابن الرومي، وقصيدته في عتاب أبي القاسم التوزي الشطرنجي مشهورة، ومر بنا في الفصل السالف قطعة بديعة منها في وصف لعب أبي القاسم ب الشطرنج، وكان أمهر معاصريه في لعبه، غير أنا نقف الآن عند عتابه، وقد عرضه عرضاً طويلاً طريفاً، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق، يقول:

كشفت منك حاجتي هنوات ... غطيت برهة بحسن اللقاء

تركتني ولم أكن سيئ الظـ ... ـن أسيء الظنون بالأصدقاء

قلت لما بدت لعيني شنعاً ... رب شوهاء في حشا حسناء

ومضى في حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة، يقول لها ليتني لم أهتك ستركن وهن يقلن له بل لقد صنعت حسناً، إذ لو لم تفعل ذلك لظللت في ظلم الشك من صاحبك ضالاً حائراً، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف أمكنة الداء منه وتطب لها طباً يداويها دواء يشفي الصديق، ويعتب على أبي القاسم أنه لم ينله نوالاً ولا رداً كريماً، ويظل يستعطفه طويلاً. وقد أسلفنا في الفصل الماضي قطعة بديعة له في عتاب آل وهب.

ولابن الرومي غزل كثير يأتي به مستقلاً تارة، وتارة في مقدمات قصائده، وقلما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبي نواس أو حتى مثل البحتري، ومرت في الفصل الماضي قطع مختلفة له في وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله في وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ قوله[١]:

وفاحم وارد يقبل ممـ ... ـشاك إذا اختال مسبلا غدره[٢]

أقبل كالليل من مفارقه ... منحدراً لا يذم منحدره

حتى تناهى على مواطئه ... يلثم من كل موطى عفره[٣]

كأنه عاشق دنا شغفاً ... حتى قضى من حبيبه وطره

---

[١] زهر الآداب ١٦/٣.

[٢] الغدر: ذوائب الشعر وقطعه .

[٣] العفر: ظاهر التراب.

وهي صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء في وصف المحسوسات، وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصورة النفيسة في غزله، وكأنما تحول عقله إلى ما يشبه كنزاً سائلاً بالدرر، فهو لا يني يطرف قارئه بمعنى مستحدث أو خيال مبتكر من مثل قوله[١]:

لا شيء إلا وفيه أحسنه ... فالعين منه إليه تنتقل

فوائد العين منه طارفة ... كأنما أخرياتها الأول

فكل شيء وكل عضو في صاحبته فتنة من الفتن حسناً وجمالاً، فالعين ما تزال تنتقل، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة، حتى لكأنما انمحت فكرة الأول وأعقابها، فكل شيء من الأول، وكل شيء لا يكاد النظر يفرغ منه حتى يعود إلى التملي به. وله قافية نظمها في جارية سوداء لممدوح له من البيت العباسي هو عبد الملك بن صالح، وفيها يقول معللا علة حسنة لسوادها:

أكسبها الحب أنها صبغت ... صبغة حب القلوب الحدق

ويبدو أن بعض الجواري عبثن به وغدرنه في حبه ومكرن مكراً خبيثاً، ولذلك نراه في نونيته المسماة بدار البطيخ يصدر أحكاماً قاسية على النساء عامة، من مثل قوله[٢]:

ومن عجائب ما يمنى الرجال به ... مستضعفات لهم منهن أقران

مناضلات بنبل لا تقولم له ... كتائب الترك يزجيهن خاقان

ولا يدمن على عهد لمعتقد ... أنى وهن- كما شبهن- بستان

ميل طوراً بحمل ثم يعدمه ... ويكتسى ثم يلفي وهو عريان

يغدرن والغدر مقبوح يزينه ... للغاويات وللغاوين شيطان

وقد يكون دافع ابن الرومي إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة في عصره شيوع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجواري لم تكن سيرتهن حسنة.

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه، مما جعله يكلف بها كلفاً شديداً، بل لقد تحول عاشقاً لها عشقاً لا نألفه عند شعراء العربية من قبله، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حرة، معيشة محب واله، يرى الطبيعة من حوله، وقد تحولت وجوهاً فاتنة ناطقة، وكل شيء فيها يغريه بالنظر واللمس والشم، حتى لنحس كأنما يفني في الطبيعة فناء أصحاب المنزع الرومانسي الغربي، وكأنما الحجب ترفع بينه وبينها في كل يوم فيزداد بها

---

[١] ديوان المعاني العسكري ٢٣٢/١.

[٢] الديوان ص ٢٠ وما بعدها.

ولها ويزداد سروراً وغبطة، وقد عرضنا في الفصل الماضي منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. ونكتفي هنا بأن نسوق مثلاً لتصويره الربيع، يقول[١]:

ورياض تخايل الأرض فيها — خيلاء الفتاة في الأبراد

ذات وشي تناسجته سوار — لبقات بحوكه وغوادي[٢]

فهي تثنى على السماء ثناء — طيب النشر شائعاً في البلاد

من نسيم كأن مسراه في الأر — واح مسرى الأرواح في الأجساد

منظر معجب تحية أنف — ريحها ريح طيب الأولاد

تتداعى بها حمائم شتى — كالبواكي وكالقيان الشوادي

تتغنى القران منهن في الأيـ — ـك وتبكي الفراد شجو الفراد

فالأرض تتراءى له كأنها فتاة حسناء تختال في برود الربيع البهيجة، ووشيها الذي نسجته السحب نسجاً بديعاً، وهي تثنى على السماء ثناء عاطراً، والنسيم يسري في الأرواح سريان الأرواح في الأجساد، وما أجمله من منظر وما أروعه من عطر للطبيعة يملأ النفس حناناً وعطفاً كرائحة الأولاد النجباء، والحمائم تتناغى بين باكيات وشاديات، أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن، وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين، وكأنهن يبكين الانفراد. والقطعة تعج بالحياة، بل قل إنها تعج بالحب حب شاعر أغرم بالطبيعة وملأت قلبه براً وحناناً ومودة. ولفت هذا الجانب عند ابن الرومي العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية، ولكن اليونان لم يعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملأوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومي، وأوروبا نفسها في عصرها الكلاسيكي في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، حين كانت تحاكي الآثار اليونانية، لم يعرف عندها هذا النوع من الشعر، حين كانت تحاكي الآثار اليونانية، لم يعرف عندها هذا النوع من الشعر، إنما عرف في العصر الرومانسي في أثناء القرن التاسع عشر، حين انفكت من محاكاة الآثار اليونانية[٣]. على كل حال ابن الرومي يشغف بالطبيعة ويكلف بها كلفاً لم يعرف لشاعر قديم.

---

[١] الديوان ص ٧٥.

[٢] تناسجته: اشتركت في نسجه . السواري والغوادي: السحب.

[٣] أنظر في مناقشة هذه المسألة كتابنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (طبع دار المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها.

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يبرع في وصف مجالس الأنس وما يجري فيا من خمر وسماع. وهو لا يتورط في المجون والإثم تورط أبي نواس وأمثاله، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسي الخمر، فقد كان شربها شائعاً في عصره، ومرت بنا في غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التي يقول فيا أنا أبا حنيفة أحل النبيذ. ودعا الخمر في بعض شعره ريق الدنيا، يقول:

فتى هجر الدنيا وحرم ريقها وهل ريقها إلى الرحيق المبرد

وقد أكثر من وصف مجالس السماع، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حاداً، فإذا لم يقع المغني أو المغنية من أذنه موقعاً حسناً صب عليهما شواظاً من هجائه، على نحو ما مر بنا في هجائه لشنطف، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وحيد، وكانت فتنة صوتاً وحسناً، وفيها يقول[١]:

تتغنى كأنها لا تغني من سكوت الأوصال وهي تجيد

لا تراها هناك تجحظ عين لك منها ولا يدر وريد[٢]

من هدو وليس في انقطاع وسجو وما به تبليد[٣]

مد في شأو صوتها نفس كا ف كأنفاس عاشقيها مديد

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة، وقد ذكرنا له في الفصل الماضي قطعاً مختلفة في وصف دجاج مشوي ومرققات وقطائف وعنب رازقي، وديوانه زاخر بأمثالها، وهي أثر من آثار نهمه في الطعام، وأيضاً من آثار براعته في وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه، وله قطعة معروفة في وصف ارقاق وأخرى في وصف قالي الزلابية يقول فيها[٤]:

كأنما زيته المقلي حين بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تصب

يلقى العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبابيكا من الذهب[٥]

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة، وأدنى على أن يصبح شاعراً شعبياً، ومن تتمه هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمالين والشوائين، كما يصف الثياب البالية. وكان قد تعلق

---

[١] الديوان ص ٩٨.

[٢] يدر: ينتفخ ويتوتر . الوريد: عرق في العنق.

[٣] الهدو: انخفاض الصوت . السجو: مده . التبليد: التقطع.

[٤] الديوان ص ٣٧١.

[٥] اللجين: الفضة .

بوصف الطيلسان البالي- كما مر بنا- الشاعر المعروف باسم الحمدوني، فنزع منزعه في هذا الجانب بمثل قوله[١]:

معمر قال نوح حين أبصره إنا محيوك فاسلم أيها الطلل

أميل في الطرق خوفاً من مزاحمة تهده فكأني شارب ثمل

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبي هو الذي جعله يهتم الزهاد والوعاظ، وليس في حياته ما يصله بالوعظ والزهد، وقد ذكرنا له موعظة في الفصل الماضي،وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب في وعظه وتصويره للزهاد. وحقاً أن ديوانه يجري فيه تشاؤم واسع، ولكن التشاؤم شيء والزهد شيء آخر، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل، والتشاؤم- وخاصة عند ابن الرومي- نقمة على فقدان المتاع بالحياة، وهي نقمة صبت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكي وحس مرهف وشعور دقيق، فمضى في كثير من جوانب شعره يصور الحياة سوداء حالكة، ويتخذها هي والناس وشرورهم وطباعهم موضوعاً لفنه وشعره. وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة، فإذا هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر[٢] والأكول[٣] والثقيل[٤]، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجلد، وقد مثلنا في الفصل الماضي لهما بقطعة من شعره.

وكان ابن الرومي لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً. فكان طبيعياً أن يكون في أشعاره ما يهبط درجات عما حوله، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو على الآفاق الدنيا، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروي عن تلميذه أبي عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويل لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسودتها؟. فأجابه: هي هذه، فقال له الناجم: ما فيها حرف مصلح، فقال: قد استوت بديهتي وفكرتي فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه. وليس معنى ذلك أنه يوجد في أشعاره غث كثير، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره وخاصة الجناس، وكانت له أذن موسيقية رائعة. وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع غلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبي، لشعبية كانت متأصلة في ذات نفسه. والحق أنه كان شاعراً

---

[١] أنظر مقطوعات أخرى في الديوان ص ٣١٨.

[٢] الديوان ص ٩٥.

[٣] الديوان ص ١٧٥.

[٤] الديوان ص ٧٣.

بارعاً، بل لا شك في أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعاني والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلاً به وأشعاره.

٤

ابن المعتز[١]

ولد عبد الله لأبيه المعتز بسامراء قبل مقتل جده المتوكل في سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صرع جده هذا المصرع الخطير، صرعه جنده وقواده الأتراك الذين فسح لهم في الحكم والسلطان والتسلط، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عهداً ولا ذمة. وسرعان ما يتوفى ابنه المنتصر الذي خلفه، ويصبح الخلفاء لعبة في أيديهم، فيولون المستعين ويخلعونه ويقتلونه، ويولون المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ) وكان لا يزال في نحو العشرين من عمره، وكان جميل الوجه، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التي سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها، من أسماء الأضداد، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر، مما أنطقه بالشعر المصفي. وكان يعكف على اللهو والصيد، فمجالسه لا تزال غاصة بشارية وعريب وزنام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد. وفي مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتي نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء في قصره وفي بعض الأديرة[٢]، ونطلع على جانب من ترفه في قصريه "الزو" و "الكامل" بسامراء، ومر بنا وصف البحتري للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه، ولعله نفس البستان الذي كان يزخر بالحيوانات، والذي كان يتسلى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان[٣].

وكانت أم عبد الله بدورها من الجواري، ولعلها كانت أيضاً رومية الأصل مثل جدته، فقد كان جميل المحيا، وورث عن أبيه كل طباعه، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر. وكان ذكي

---

[١] انظر في ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق: أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية) ٢٧٤/١٠ والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ٩٥/١٠ ومروج الذهب ٢٠٣/٤ والطبري ١٤٠/١٠ ونزهة الألباء لابن الأنباري وابن خلكان وفوات الوفيات ٢٤١/١ ومرآة لجان لليافعي ٢٢٥/٢ وشذرات الذهب ٢٢١/٢ والنجوم الزاهرة ١٦٤/٣ وفي مواضع مختلفة وعبد الله بن المعتز العباسي لمحمد عبد العزيز الكفراوي (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهر وديوانه طبعة بيروت، وهي التي نرجع إليها وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزءين في استانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولي بدار الكتب المصرية.

[٢] الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤.

[٣] الديارات ص ١١١.

القلب صافي العقل، فأضاف إلى ترفه الذي نشأ منغمساً فيه إقبالاً متصلاً على الدرس منذ نعومة أظفاره، حتى ليلفت ذلك البحتري، وهو لا يزال في التاسعة من عمره، فيمدحه قائلاً[١]:

أبا العباس برزت على قومـ ـك آداباً وأخلاقاً وتبريزاً

فأما حلبة الشعر فتستولى على السبق بها فرضاً وتمييزاً

وقد يكون في ذلك مبالغة على عادة الشعراء في المديح، لكن على كل حال في البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكب على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ في نفسه في هذه السن الصغيرة. ويبدو أن أباه كان معجباً به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير. ويسجل ذلك البحتري في مدحه[٢] طويلة له، يصور فيها جمال طلعته وشمائله الكريمة، ثم يقول:

وأبهجنا ضرب الدنانير باسمه وتقليده من أمرنا ما تقلدا

وفي الشطر الثاني ما يصور إرهاص البحتري للمعتز بأن يولي عبد الله العهد، ومضى يصرح بذلك ويطالب به ويهتف في وضوح. ونراه في قصيدة[٣] ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كي يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام، وفي ذلك يقول في قصيدة رابعة[٤]:

ومليت عبد الله إن سماحه هو القطر في إسباله وأخو القطر

شفعت إليه بالإمام وإنما تشفعت بالشمس اقتضاء إلى البدر

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المجن للمعتز وابنه، فإن جند الأتراك طالبوه في السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال، فاعتذر،ويم يقبلوا عذره، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفاً، ولكنه لم يجدها، فصمموا على خلعه، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس، ثم جعلوه في بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه. وصادروا أموال أمه قبيحة كما مر بنا في غير هذا الموضع، ونفوها على مكة ونفوا معا عبد الله ابنه وابني عميه قصى بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد. وهما محنتان قاسيتان أثرتا في نفس الصبي آثاراً بعيدة: محنته التي امتحن بها في أبيه الذي نحه الحياة والذي كان يغمره ببره وحنانه وعطفه، ومحنته بالنفي وعذابه ونكاله وعنائه، وما مر به في أثناء ذلك من أمل

---

[١] ديوان البحتري ١١١٩/٢.

[٢] الديوان ٦٧٠/٢.

[٣] الديوان ، ١٣٠٩/٢.

[٤] الديوان ١٠٠٧/٢.

ويأس ورجاء وقنوط، مع ما صلى به من حزن عميق على أبيه، مما ظل له أثر بعيد في نفه، وهو أثر يتراءى بوضوح في أشعاره، غذ يطالعنا فيا دائماً بالإحساس بآلام الحياة ما تكتظ به من كوارث وفواجع، كبرها في نفسه وخياله ما كان ينعم به في صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حفت بها الدماء المسفوكة، دماء أبيه، كما حف بها النفي والتشريد، فإذا النعم يصبح جحيماً، وينقضي عهده إلى غير مآب، وفي ذلك يقول ابن المعتز بايكاً صباه بدموع غزار[١]:

لهفي على دهر الصبا القصير ... وغصنه ذي الورق النضير

وسكره وذنبه المغفور ... ومرح القلوب في الصدور

وطول حبل الأمر المجرور ... في ظل عيش غافل غرير

ودار عام وتولى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل في طلبه وطلب جدته وابني عمه وردهم إلى سامراء، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء، إذ جعل المعتمد الأمر والنهي والسلطان لأخيه الموفق طلحة، وكان من أحزم بني العباس وأشجعهم وأنبغهم في إدارة السياسة والحرب وهو الذي قضى على ثورة الزنج وثورة الصفاريين كما أسلفنا في غير هذا الموضع. فاطمأن الغلام المروع وأخذت جدته قبيحة تعني بتربيته،وأحضرت له المعلمين في الفقه والحديث والأدب واللغة، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزي الإخباريين، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء، ويبدو أنه كان يلقي المبرد وثعلباً في أثناء زياراتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦.وفي المختار من شعر بشار أن ثعلباً كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتاً، فكتب إليه من قصيدة طريفة[٢]:

يا فاتحاً لكل علم مغلق ... وصيرفياً عالماً بالمنطق

إنا على البعاد والتفرق ... لنلتقي بالذكر إن لم نلتق

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم[٣]. وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقي المحدث الإخباري، ويروي أن البلاذري المؤرخ سعى عند حدته كي يصبح من معلميه ومؤدبيه، فغضب ابن سعيد ولزم بيته،وكانت سن ابن المعتز حينئذ ثلاثة عشر عاماً، وعلم بغضب أستاه فكتب إليه أبياتاً يترضاه بها، وهي تصور ثقافته تصويراً دقيقاً، إذ يخاطبه بقوله[٤]:

---

[١] ديوان المعاني ١٥٣/٢.

[٢] المختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص٥٤.

[٣] الفهرست ص ١٧٤.

[٤] معجم الأدباء ١٣٣/١.

أصبحت يا بن سعيد حزت مكرمة — عنها يقصر من يحفى وينتعل
سر بلتني حكمةً قد هذبت شيمي — وأججت غرب ذهني فهو مشتعل
أكون إن شئت قسا في خطابته — أو حارثاً وهو يوم الفخر مرتجل
وإن أشأ فكزيد في فرائضه — أو مثل نعمان ما ضاقت بي الحيل
أو الخليل عروضياً أخا فطن — أو الكسائي نحوياً له علل
عقباك شكر طويل لا نفاذ له — تبقى معالمه ما أطت الإبل(١)

وهو يقول إن ابن سعيد خرجه خطيباً فصيحاً لا يقل عن قس في خطابته التي اشتهر بها بين الجاهليين، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة في علمه بالفقه، ولا عن الخليل بن أحمد في علمه بالعروض، ولا عن الكسائي في النحو واستنباط علله. وهذه هي مواد ثقافته في سن الثالثة عشرة، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقاً، غير أنه ينبغي أن نحذر التعميم في الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه في تلك السن المبكرة، ومن الطبيعي- وكان نهما بالقراءة- أن يكون قد أطلع على شيء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم، ففي أشعاره إشارات لهما(٢)، وإن كنا نظن ظناً أنه لم يلم بذلك في مطالع حياته. ولعل من الطريف أن نجده يقول(٣):

ولا تفزعن من كل شيء مفزع — فما كل تربيع النجوم بضائر

وكأنه كان يتشكك في حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس. ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب، وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان، فقد بلا منهما في جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر في حزم الفراغ للحياة الأدبية، وأنفق في ذلك أعواماً كثيرة. وكان يقرأ كتابيات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللاً، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنف كتابه "البديع" محاولاً أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعاً علمياً دقيقاً، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة في الأدب العربي وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار، أما بعد ذلك فهي منثورة في القرآن الكريم والحديث النبوي وأشعار الجاهليين والإسلاميين. وألف كتباً أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب فصول التماثيل في الشراب وآدابه، وكتاب السرقات، وكتابه "طبقات الشعراء المحدثين" ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر

---

(١) أطت: أنست تعباً أو حنيناً.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة السابعة) ص٢٦٣.

(٣) الديوان ص ٢٤٩.

العباسي الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقاً مهذباً صافياً. وكان يعني منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى، وفي ذلك يقول أبو الفرج الأصبهاني: "كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها،وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة، ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[١]". ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز، ومنها نعرف أنه كان يميل في الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل في وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دور المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجاً ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر. ومن الجواري اللائي كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء في شعره زرياب وبنت الكراعة وخزامى، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج في ترجمته.

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة[٢]، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه، أو قل هي حياة الصور المترفة التي تدفع من يعيشها إلى اللهو، مما جعله يفتح بيته للندماء في بعض الأيام وبعض الليالي يسمعون ويشربون، وكأن أكثرهم من الشعراء أمثال النميري، وبينهما مراسلات شعرية طريفة، وعلى بن مهدي الأصبهاني الكسروي وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[٣] وجحظة وهو الذي أعطاه لقبه الذي اشتهر به. وكان شغوفاً مثل أبيه بالصيد، وسنعرض لبعض أشعاره فيه. وينبغي أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصاً، فقد كان يختلف إليه نابهون كثيرون من علماء اللغة والأدب وفي مقدمتهم المبرد وثعلب أستاذاه وصديقاه، ويقول الصولي في ترجمته له بكتابه الأوراق: "كانت داره مغاثاً لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة".

ومر بنا أن أباه وهبه إقطاعاً كبيراً بالشام، ولابد أن يكون قد وهبه إقطاعاً أو إقطاعات أخرى في العراق، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش في إقلال، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركي صالح ابن وصيف صادر أموالها، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤. ولابد أنه كان ينال راتباً كبيراً أو قليلاً من الدولة لعهد عمه

---

[١] الأغاني ١٠/٢٧٦.

[٢] الديارات ص ٧٢.

[٣] معجم الشعراء ص ١٤٩.

المعتمد الذي امتد حتى سنة ٢٧٩، ويروي الصولي قصيدتين له مدحه بهما، وفي إحداهما يقول[١]:

أهلاً وسهلاً بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلا

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن رد الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر.وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفاً من غضب أخيه وبطشه. وفي أخبار ابن المعتز أنه كان يروي أشعار عمه المعتمد، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه، وكان عاكفاً على الملاذ والملاهي، فكان طبيعياً أن يتصل الود بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخبارياً ظريفاً. ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذي أبلى بلاء عظيماً في محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرماً غير مدحه، ويبدو أنه أكثر حينئذ من تهانيه بظفره. من مثل قوله[٢]:

ولما طغى أمر الدعى رميته بعزم يرد السيف وهو كليل

وأعلمته كيف التصافح بالقنا وكيف تروى البيض وهي محول[٣]

ويتوفى الموفق في سنة ٢٧٨ ويخلفه ابن المعتضد وكان لا يقل شجاعاً وحزماً عنه وكان عونه وظهيره في حرب الزنج، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد، وكان مهيباً شديد الوطأة، فخافه قواد الترك، وظلوا كما كانا في عهد أبيه خانعين. وتتحول الخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من مثل قوله[٤]:

لعمري لئن أمسى الإمام ببلدة وأنت بأخرى شائق القلب نازع

وما أنا في الدنيا بشيء أناله سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء، ويكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها، وتروى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات في الشعر

---

[١] الديوان ص ٣٧٦ وفي أشعار أولاد الخلفاء ص١٣١ أنها في المعتضد.

[٢] زهر الآداب للحصري ١٩٣/٣ وفي أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها في المعتضد.

[٣] البيض: السيوف – محول: مجدبة.

[٤] الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص١٢٨.

والشعراء[١]. ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء، وتقبل الدنيا عليه، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه، ويهنئه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلاً[٢]:

فرحت بما أضعافه دون قدركم وقلت عسى قد هب من نومه الدهر

فترجع فينا دولة طاهرية كما بدأت والأمر من بعده الأمر

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد، وهو يكثر من مدحه وشكره على ما يصله به من أعطيات الدولة، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذي وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة، وفي ذلك يقول منوهاً بتلك الأسرة[٣]:

لآل سليمان بن وهب صنائع إلي ومعروف لدى مقدماً

هم علموا الأيام كيف تبرني وهم غسلوا عن ثوب والدي الدما

ويتوفى المعتضد سنة ٢٨٩، وكان ابنه المكتفي غائباً،ويضطر رئيسا لحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفي، وتمضي بسلام، ويسلك فيهم ابن المعتز، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطراري وسرعان ما يرد إليه القاسم حريته، كما يرد إليه أعطياته ويوالي له العطاء، فيكثر ابن المعتز من مدحه، معترفاً له بصنيعه من مثل قوله[٤]:

أصلح بيني وبين دهري وقام بيني وبين حتفي

ولا يلبث القاسم أن يلبي نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفي يفسح لابن المعتز في مجالسه، وابن المعتز يكثر من مدائحه، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زكرويه القرمطي المعروف بصاحب الشامة، وينادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه.

ويتوفى المكتفي لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنة لا تتجاوز الثالثة عشرة، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس في شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحلم، كما يقول كثيرون ينبغي خلعه. وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافي شهر ربيع الأول حتى يزداد

---

[١] أخبار البحتري للصولي ص ١٦٤.

[٢] أغاني ٢٨٦/١٠.

[٣] مروج الذهب ص ٢٠٤.

[٤] الديوان ص ٣١٩.

اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا في غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة. وفي يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتوليه عبد الله بن المعتز وبايعته في اليوم التالي[١]، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب، وقلده ابن المعتز الوزارة وتكلم في المقتدر قائلاً، إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح .ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هب مؤنس الخادم في جند كثيرين فنقضها وجدد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد في الأعطية. ولم يبق مع ابن المعتز أحمد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجوار المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب. وما كان أحراه أن يبتعد عنها، متعظاً بما أصاب أباه منها، ولكن النفس أمارة بالسوء.

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التي كونت شخصية ابن المعتز الأدبية، فهو عربي عباسي يعتز بعروبته وأسرته، ولد في القصر العباسي وفي كل ما انبث فيه من لهو وطرب، على نحو ما هو معروف عن آبائه: الرشيد والمتوكل والمعتز، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ، وقد يكون في ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادي للأشياء، أو قل على وصفها وصفاً ماديا، غذ كان هذا الوصف هو الذي يلائم مزاجه المترف، كما كان يلائم عقله الذي يعيش في النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء، وإنما يقف عند ظاهرها الحسي المكشوف، وقديماً أشار ابن الرومي إلى تأثير بيته المترفة في شعره، وإن كان إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقي بما قدمنا، فقد سأله شخص: لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له: أنشدني شيئاً من شعره أعجز عن مثله، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال:

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال ابن الرومي له: زدني، فأنشده:

كأن آذريونها والشمس فيه كالية[٢]

مداهن من ذهب فيها بقايا غالية[٣]

---

[١] أنظر في بيعة ابن المعتز ومقتله الطبري ١٠/١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/١٦٤ وذيل زهر الآداب ص٢٠٤.

[٢] الآذريون: زهر أسفر في وسطه حمل أسود.

[٣] الغالية: المسك ، وهو أسود.

وصاح ابن الرومي: واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذلك إنما يصف ماعون بيته، لنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به، أمدح هذا مرة وأهجو هذا كرة. وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً[1]. وابن الرومي يلاحظ التأثير المادي المترف للبيئة على ابن المعتز. وعنصر آخر اشترك في تكوين شخصيته الأدبية بقوة، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية،وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد في عصره إلى مجددين مسرفين في التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها في الشعر العربي من جماعة المترجمين ومن التف حولهم، ومحافظين مسرفين في رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحتري من الشعراء، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية في المقاييس الأجنبية من أمثال أبي تمام وابن الرومي وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية في نفسه، ويصرح بذلك في كتابه البديع الذي أنشأ ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً في حقيقته، بل هو يستمد من أصول قديمة في الشعر الجاهلي والإسلامي والقرآن الكريم والحديث النبوي. وخص أبا تمام برسالة احتفظ بها في ترجمته كتاب الموشح للمرزباني، وهي تحمل كل الأسس التي كون منها الآمدي حملته على أبي تمام. ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحو نحو المحافظين في فهم الشعر ونقده ونظمه. وكتابه "طبقات الشعراء المحدثين"، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسي ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده؛ إذ سخرها كما يتضح في كتابه "البديع" لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشيء ذي بال،وأن كنز الشعر العربي القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف.

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسياً اثر فيه وفي شخصيته وشعره آثاراً عميقة، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله، مما آذى نفسه إيذاء شديداً، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته، غذ يجلل شعره أسى عميق، وحقاً كان يكب كثيراً على اللهو يغرق فيه أحزانه، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحي من نفسه، ولعل ذلك ا جعله يكثر من الفخر بشجاعته، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته.

وتل هي مكونات شخصيته، بيئة مترفة ينغمس من فيها في ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة، وثقافة عربية إسلامية محافظة، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلم به مبكراً، وتدلهم من

---

[1] النجوم الزاهرة ٣*٩٦.

حوله الخطوب، فيفكر في الحياة والموت وما في الدنيا من بؤس وآلام، وكأنما كتب عليه ألا يشرب كئوس الترف واللهو صافية، فدائماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونكر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم، وابن المعتز مع ذلك كله غزل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء.

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحتري، فقد روي عنه أنه قال: كان مما حبب الشعر إلى أني سمعت البحتري ينشد الماضي (يريد أباه المعتز) شعراً تشوقه الناس واستحسنوه ووصفوه، تصرف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر، وعدد أصناف ما أخذ، وطلب خاتم ياقوت، وهو عندي من أحسن شعره، وهو:

بودي لو يهوى العذول ويعشق فيعلم أسباب الهوا كيف تعلق[1]

والبحتري يستهل القصيدة بغزل مليء بالشوق إلى علوة صاحبته الحلبية، ويصف طيفها الذي ألم به في حلمه ولهفته على لقائها، وعناقها وصبابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خدودهما حين يلتقيان، حتى ليقول:

فلو فهم الناس التلاقي وحسنه لحبب من أجل التلاقي التفرق

ويفيض في مديح المعتز وما أضفى عليه من عطايا، ويستوهبه في رقة ولطف خاتماً. ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التي أنشدها البحتري أباه وسنه لا تتجاوز التاسعة، وتذوقه لها في هذه السنن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر، حتى تكون له ذوق يستطيع به أن يفقه ما في الشعر من جمال. ومر بنا وصف البحتري له في حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد في الثامنة أو التاسعة من حياته.

ولم يكن البحتري وحده أستاذه في مطالع حياته، فأهم منه أبوه المعتز إذ كان شاعراً بارعاً، ول قدر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه، وكان ينفق كثيراً من أوقاته في اللهو والمجون والصيد، وينظم في ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم، وكل ذلك ورثه ابن المعتز عن أبيه. وبذلك كان له في أوائل حياته أستاذان: أستاذ من بيته هو أبوه الذي كان يدربه على نظم الشعر، وأستاذ من غير بيته هو البحتري.

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع في متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحتري، حقاً كثيراً ما يرتفع، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة، مما جعل كثيرين في عصره

---

[1] أخبار البحتري ص ١٠٨ والتحف والهدايا للخالديين نشر الدكتور سامي الدهان ص ٧٣ وأنظر الديوان ١٥٣٤/٣.

وبعد عصره يحملون عليه، وتصدي لهم أبو الفرج ملوحاً في وجوههم بقوله: "شعره إن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ليس على أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية، فليس يمكن واصفاً لصبوح في مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك... أن يعدل عما يشبهه من الكلام السبط (السهل) الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامة والظبي والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء، ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط في البعض وقصر في اليسير وينسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطي المحاسن. فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجد مساغاً[1]". وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتز، ووضعه في مكانه الصحيح، فهو في أكثر شعره محسن، وهو في بعضه متوسط الإجادة، وفي اليسير منه مقصر، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان في أثناء سمرة أو في أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لابد أن نشير إلى مهارته في الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التي تزن جرس الكلام، ولذلك كنا نحس عنده دائماً بأنه لا يهمل الأسماع في شعره، إذ كان يحاول أن يلذها بأنغامه وألحانه. وظاهرة ثانية في أشعارها هي عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهي ظاهرة طبيعية، إذ كتب في هذه الفنون كتابه "البديع" ونوه بها، غير أنه لم يفرط في الجناس والطباق إفراطاً بعيداً، وقد عاب أبا تمام بذلك في كتابه، لنه يخرج فيه على طريقة القدماء. والمحافظون من أمثاله وأمثال البحتري كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء، فلم يكونوا يسرفون فيه مثل أبي تمام وسلم ابن الوليد.

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده، لتتضح لنا شاعريته، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح، ومر بنا أن مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة في مديحه لابن عمه المعتضد، أم مديحه في غيره ففاتر، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلاً مغواراً واستطاع- كما استطاع أبوه الموفق- أن يخضد شوكة الترك، بل أن يقلم أظفارهم، وكأنما كان يشفي غليل ابن المعتز وضغنه القديم عليهم، إذ هم قتله أبيه وسافكو دمه، وليس ذلك فحسب هو الذي جعل المعتضد يقرب من نفسه،

---

[1] الأغاني ١٠/٢٧٤.

فقد اتخذه نديماً وجليساً وتوالت عطاياه عليه، فكان إذا مدحه انبعث في مديحه عن عاطفة صادقة حارة، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التي يستهلها بقوله[١]:

سلمت– أمير المؤمنين– على الدهر ولا زلت فينا باقياً واسع العمر

حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر

فليس له فيما بنى الناس مشبه ولا ما بناه الجن في سالف الدهر

والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد، ويقال– كما مر بنا في غير هذا الموضع– إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ، ومن حولها البساتين والرياض، وقد صورها ابن المعتز تصويراً رائعاً، إذ يقول في نفس القصيدة:

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر

جنان وأشجار تلاقت غصونها فأورقن بالأثمار والورق الخضر

ترى الطير في أغصانهن هواتفاً تنقل من وكر لهن إلى وكر

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذي يجر إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحش أو ذبيحاً من البشر، والذي ما يزال يفزع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويقضمه قضماً. وكان المعتضد حقاً شجاعاً شجاعة خارقة، ويصور ابن المعتز ما بسط في البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله في القصيدة:

حكمت بعدل لم ير الناس مثله وداويت بالرفق الجموح وبالقهر

وليس في أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا، وخير مدائحه فيهم جميعاً ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب، وهو على كل حال لا يبالغ في إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم، إنما هي أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله[٢]:

ايا موصل النعمى على كل حالة إلى قريباً كنت أو نازح الدار

كما يلحق الغيث البلاد بسيله وإن جاد في أرض سواها بأمطار

لقد عمر الله الوزارة باسمه ورد إليها أهلها بعد إقفار

وكانت زماناً لا يقر قرارها فلاقت نصابا ثابتاً غير خوار

---

[١] الديوان ص ٢١٥.

[٢] الديوان ص ٢١٧.

وفي ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمه في ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزناً شديداً، إذ أحس كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه، كما أحس أن أيام أنسه عادت ظلاماً، فقد طوت المنية صديقه الحميم، وطار قلبه فزعاً، واسودت الدنيا من حوله، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله في حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وباس له شديد، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقاً[١]:

يا ساكن القبر في غبراء مظلمة ... بالطاهرية مقصى الدار منفرداً[٢]

أين الجيوش التي قد كنت تسحبها ... اين الكنز التي لم تحصها عدداً

أين السرير الذي قد كنت تملؤه ... مهابة، من رأته عينه ارتعدا

أين الرماح التي غذيتها مهجاً ... مذ مت ما وردت قلباً ولا كبدا

ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيه، وكأنما أصبح طللا مهجوراً، ولا أثر ولا عين، كأنما لم يكن به المعتضد يوماً. ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتاً قليلة يبكي فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية في الحكم والتدبير من مثل قوله:

هذا أبو القاسم في نعشه ... قوموا انظروا كيف تسير الجبال

يا ناصر الملك بآرائه ... بعدك للملك ليال طوال

وطبيعي ألا نجد عند ابن المعتز هجاء، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذي يستحيل في أيدي الشعراء سهاماً يسددونها إلي خصومهم، ولم يكن له خصوم، ولا كان يكن لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندراً ودعابة من مثل قوله لعلي بن بسام هجاء عصره[٣]:

يا قذي في العيون يا حرقة بيـ ... ـن التراقي حزازة في الفؤاد

يا طلوع العذول ما بين إلف ... يا غريماً وافي على ميعاد

يا ركوداً في يوم غيم وصيف ... يا وجوه التجار يوم الكساد

خل عنا فإنما أنت فينا ... واو عمرو أو كالحديث المعاد

---

[١] النجوم الزاهرة ١٢٧/٣.

[٢] الطاهرية: الدار التي دفن بها المعتضد غربي بغداد.

[٣] ذيل زهر الآداب ص ١٨١.

ويكثر ابن المعتز في شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه في الحروب وفروسيته، وهو يحاكي في ذلك القدماء في حماستهم، فهو فخر مصطنع متكلف في جمهوره، ويفخر طويلاً بأسرته ويجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه في موقعة حنين، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم، وفي ذلك بقول[١]:

إنا لننتاب العداة وإن نأوا ونهز أحشاء البلاد جموعا

ونقول فوق أسرة ومنابر عجباً من القول لمصيب بديعا

قوم إذا غضبوا على أعدائهم جروا الحديد أزجة ودروعاً

وكأن أيدينا تنفر عنهم طيراً على الأبدان كن وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة، فهو يتصور رءوس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايا لمكانه من أبدانهن. ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة، وهي شكوى مردها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته في مقتل أبيه، على نحو ما مر بنا آنفاً، فقد خلفت هذه المحنة في نفسه ضيقاً شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحياناً.

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين، مبيناً أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم، مذكراً لهم بأن بيته هو الذي استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده[٢]، ويحاول في مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستل البغض والإحن من نفوسهم على شاكلة قوله[٣]:

بنى عمنا عودوا نعد لمودة فإنا إلى الحسنى سراع التعطف

لقد بلغ الشيطان من آل هاشم مبالغه من قبل في آل يوسف

فهم في رأيه بيت واحد وإخوة وينبغي أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبنيه، حتى باعوه لسيارة بثمن بخس دراهم معدودة. ويبدو أن بعض معاصريه لامه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبي طالب، فنظم قصيدة طويلة في مديحه والثناء عليه، يقول في مطالعها[٤]:

---

[١] الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥.

[٢] الديوان ص ٥٠.

[٣] الديوان ص ٣٢٧.

[٤] الديوان ص ٦٧.

أآكل لحمي وأحسو دمي فيا قوم للعجب الأعجب[١]

على يظنون بي بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بي

ومضى يقول إن الذي يشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادة الدين باسم التشيع لعلي وهو منهم بريء وفضله لا ينكره أحد، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته في الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول، وسماه بحر العلوم، وذكر مواقفه العظيمة، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره. ولا بد أن نفصل بين شعر ابن المعتز الموجه إلى العلويين، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض، فهو في الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما في الثاني فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة.

وتلقانا في ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقي كان يكتوي بناره، فهي مقطوعات وقد تكون استهلالات لقصائد، لا تصدر عن وجه شديد، وإنما تصدر غالباً عن ود، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ،ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح في الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذي لا ينبع من أعماق النفس والقلب، أو قل هي أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجواري أمثال نشر وشرة على سبيل الدعابة من مثل قوله[٢]:

وابلائي من محضر ومغيب وحبيب مني بعيد قريب

لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل ريها برقيب

وقوله[٣]:

زاحم كمي كمه فالتويا وافق قلبي قلبه فاستويا

وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قرة العين ويا همي ويا

وهي أبيات لا تصور عذاباً في الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هي أقرب ما تكون إلى الدعابة، وختم البيت الرابع بقوله: "ويا" كما يقول الناس: يا أختي ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح. وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سماه المتأخرون

---

[١] أحسو: أشرب .

[٢] الديوان ص ٥٢ وأشعاره أولاد الخلفا ص ٢٢١ والأغاني ١٠-٢٧٨.

[٣] الأغاني ٢٧٩/١٠.

باسم الاكتفاء. واقرأ في ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب، إنما تقف على دعابات وصور وفن من مثل قوله[١]:

تقول العاذلات تعز عنها ... واطف لهيب قلبك بالسلو

وكيف وقبله منها اختلاساً ... ألذ من الشماتة بالعدو

وقوله[٢]:

إذا اجتنى وردة من خدها فمه ... تكونت تحتها أخرى من الخجل

وكان- كما أسلفنا- ينفق على شاكلة أبناء القصور- كثيراً من أوقاته في اللهو والخمر، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسقاتها وأديرتها، فهو لا يشربها في بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب، بل يشربها أيضاً في أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون، وهو يصرح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول[٣]:

وليس للهم إلا شرب صافية ... كأنها دمعة من عين مهجور

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها، وليتسلى ويتعزى عن مقتل أبيه الذي لم ينسه يوماً، ومثله في الخمر مثله في الحب، فهو لا يتعبد لها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبح بآلائها مقدماً إليها قرابينه من الشعر، إنما هو يتسلى بها ويتسلى بما ينظمه فيها بمثل قوله في مديح الصبوح[٤]:

اسقني الراح في شباب النهار ... وانف همي بالخندريس العقار[٥]

قد تولت زهر النجوم وقد بشـ ... ـر بالصبح طائر الأسحار

ما ترى نعمة السماء على الأر ... ض وشكر الرياض للأمطار

وغناء الطيور كل صباح ... وانفتاق الأشجار بالأنوار

فكأن الربيع يجلو عروساً ... وكأنا من قطره في نثار[٦]

---

[١] مروج الذهب ٤/٢٠٣.

[٢] مروج الذهب ٤/٢٠٥.

[٣] الديوان ص ٢٣٠.

[٤] الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٠.

[٥] الخندريس العقار: الخمر.

[٦] النثار: ما ينثر على العروس من الدراهم الفضية.

وهي أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحاً في الربيع، ولكنها لا تصور حباً ولا تهالكاً على الخمر، ولا عاطفة جامحة أو متقدة، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويظهر مقدرته على النظم في الخمر، ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل مزدوجة[١] في ذمة امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتاً وفيها يقول:

فأي فضل للصبوح يعرف　　على الغبوق والظلام مسدف[٢]

ويطيل في الأسباب التي من أجلها يذمه ذماً قبيحاً، كأن يعرض المصطبحين للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفاً. وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات لعصره وبيان محاسن الشيء ومساوئه، كما مر بنا عند ابن الرومي في ذمة للورد، ولكن من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور في ذلك عاطفة، وإنما صور عبثاً عقلياً، وقد يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان في مزدوجة مشهورة له، إذ يقول:

وياسمين في ذرى الأغصان　　منتظم كقطع العقيان

والسرو مثل قضب الزبرجد　　قد استمد العيش من ترب ندى

على رياض وثرى ثرى　　وجدول كالمبرد الجلى

وجلنار كاحمرار الخد　　أو مثل أعراف ديوك الهند

ويستمر في رصف مثل هذه التشبيهات والصور، وكانت لديه مهارة خارقة في اجتلابها، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومي آنفاً. وقد لا يستمدها من ماعون بيته، ولكن نحس كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور. وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهي تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده، فتارة يشبه الظلام بحبشي أسود والصباح يفتر عن أسنانه ضاحكاً من فراره، أو يشبهه بغراب قوادمه بيضاء أو مقصوص الجناح، أو بأسود عريان يمشي في الدجي بسراج، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله[٣]:

كمنجل قد صيغ من فضة　　يحصد من زهر الدجى نرجسا

---

[١] الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٥١.

[٢] مسدف: مرخى الستور .

[٣] الديوان ص ٢٧٨.

وتكثر في الديون مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقد كان يلم بالطبيعة الصحراوية. ولعل أبا الفرج الأصبهاني لم يرد في دفاعه عنه الذي مر بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره في الأطلال والبيد وحيواناتها، إنما أراد الإكثار من النظم في الصحراء إذ له أشعار مختلفة في وصفها، وقد مرت بنا في غير هذا الموضع أبيات طريفة له في وصف الأطلال والديار الخالية، وأخرى في وصف ثور الوحش وبقره، ومن طريف ماله في وصف الإبل قليلة اللبن وهي تحلب قوله[١]:

رأيت انهمار الدر بين فروجها كما عصرت أيدي الغواسل أثوابا

وقوله في أخرى وسراه عليها طول الليل، كأنها هائمة تطلب شيئاً ضالاً منها[٢]:

فكأن أيديهن دائبة يفحصن ليلتهن عن صبح

وله في الخليل أشعار مختلفة، وطبيعي أن يعني بها، غذ كان شغوفاً بالصيد، حتى ليحتل الطرد جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره، ومن طريف ما نعته بها قوله في مقدمة إحدى طردياته يصف فرساً له[٣]:

قد أغتدى والصبح كالمشيب في أفق مثل مداك الطيب[٤]

بقارح مسوم يعبوب ذي أذن كخوصة العسيب[٥]

أو آسة أوفت على قضيب يسبق شأو النظر الرحيب[٦]

أسرع من ماء إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته في تلك الرحلة للصيد، ويصف مهارته في تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه، يخزها ويطعنها مسيلاً لدائها مزهقاً لأرواحها، يقول:

وأجدل أحكم بالتأديب سوط عذاب واقع مجلوب[٧]

---

[١] الديوان ص ٣٦.

[٢] الديوان ص ١٤٠ .

[٣] الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢٣/٢ وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩.

[٤] المداك: الحجر الذي يسحق عليه الطيب .

[٥] قارح: مكتمل الخلق . مسوم: معل حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى.

[٦] أوفت: أشرفت .

[٧] أجدل: صقر .

يهوى هوى الماء في القليب ما طار إلا لدم مصبوب[١]

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة في طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المشرعة، ومن طريف ماله في تصوير عين باز قوله[٢]:

ومقلة تصدقه إذا رمق كأنها نرجسة بلا ورق

وله في الكلاب طرديات كثيرة يأتسى فيها بأبي نواس، بل هو في طردياته جميعاً يأتسى به ويحاكيه حتى في ألفاظه التي يفتتح بها تلك الطرديات، من مثل: قد اغتدى. وقد مضى في إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدة براثنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله في إحدى طردياته[٣]:

ومخطف مؤثق الأعضاء ذي أذن ساقطة الأرجاء[٤]

كوردة السوسنة الشهلاء وبرثن كمثقب الحذاء[٥]

ومقلة قليلة الأقذاء صافية كقطرة من ماء

تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حية رقطاء[٦]

وله طرديات أخرى في الفهد، وفي قوس البندق، ويكثر فيها جميعاً من التشبيهات والصور الطريفة، ومن الحق أنه كان بارعاً في تصوير أي شيء يلم به من كوكب في السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار في الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال في الطبيعة المتبدية، وليس بين المحدثين من وصف الحية وصفه لها في قوله[٧]:

كأنني ساورتني يوم بينهم رقشاء مجدولة في لونها بلق

كأنها حين تبدو من مكانها غصن تفتح فيه النور والورق

ينسل منها لسان تستغيث به كما تعوذ بالسبابة الغرق

---

[١] القليب: البئر .

[٢] أشعار أولادالخلفاء ص٢١٨ وديوان المعاني ٢/١٤٠.

[٣] الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٧.

[٤] مخطف: ضامر . ساقطة الأرجاء: شديدة السمع.

[٥] السوسنة: الزنبقة . برثن: مخلب .

[٦] رقطاء: رقشاء أي بها نقط سود وبيض.

[٧] الديوان ص ٣٣٠.

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهي تكثر كثرة تجعلنا نظن ظناً أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات في الشعر العربي، وهو في طائفة منها ينحو نحو الدعابة. ويكثر في شعره- كما قدمنا- من التفكير في الموت ومصير الحياة والشكوى من الدنيا والأصدقاء، وعللنا ذلك آنفاً بأنها طوابع طبعتها في نفسه نكبته بابيه ونفيه على مكة في صباه ،وقد ظل يحن إلى سامراء بعد نزله ببغداد وما لقي من بعوضها ونقيق ضفادعها[١].

وقد تحدثنا في غير هذا الموضع عن اهتمامه بالشعر التعليمي ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صور فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره. ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره.

---

[١] الديوان ص ٤٠١.

٥

الصنوبري[١]

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الصنوبري، وفي بعض المصادر أن اسمه محمد[٢]، وهو خطأ، إذ ذكر اسمه في ديوانه غير مرة باسم أحمد، من مثل قوله معزياً نفسه في بعض الظروف:

أرض حكم الزمان يا أحمد أرضه إن تذق ضيمه فقد ذقت محضه(٣)

وصحف لقبه "الضبي" نسبة إلى قبيلة ضبة في فوات الوفيات، فصار "الصيني" ولا علاقة له بالصين، إنما هو تصحيف النساخ. أما لقبه الثاني "الصنوبري" فزعم هو نفسه أن جده كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك في مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له: إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحده مزاجه، ولعل المأمون لم يرد بذلك إلا سمته وصورته وأن وجهه على هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة، ويفخر الصنوبري بهذا اللقب لأسرته قائلاً[٤]:

إذا عزينا إلى الصنوبر لم نعز إلى خامل من الخشب

لا بل إلى باسق الفروع علا مناسباً في أرومة الحسب

وهو من أهل أنطاكية، ولكن منشأه ومرباه في حلب، ولا ندري كيف تحول أبوه به إليها، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئاً من القرآن ويكب على حفظ الشعر وتعلم العربية، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى في العالم العربي تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان. وفي ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء في اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوي وإلى بعض المتطببين، ونراه يذكر أرسطاطاليس وبقراط في بعض أشعاره[٥]. وقد يدل ذلك من بعض

---

[١] أنظر في ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٥٦/١ وفوات الوفيات (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ١١١/١ والوافي بالوفيات للصفدي ٣٧٩/٧ وشذرات الذهب ٣٣٥/٣ ومعجم البلدان لياقوت في (حلب) وديوانه بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة ببيروت.

[٢] الفهرست ص ٢٤٥.

[٣] الضيم: الممزوج بالشوائب . والمحض: الخالص غير المشوب.

[٤] الديوان ص ٤٥٦.

[٥] الديوان ص ٢٧٩.

الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل، وأنه قضى في ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفاً، على الأقل ملماً بالثقافات لعصره، إن لم يكن إلماماً عميقاً، فإنه على كل حال معرفة واطلاع.

وقد عاش حياته في حلب، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين، وألم بدمشق، ونجده لا يترك والياً على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة، وهو يستهل ذلك بمديحه لذكا[١] بن عبد الله الأعور والي حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحتفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبري بقصيدة في مديح ابنه المظفر[٢] يصفه فيها بالكرم والشجاعة، ويوصيه بشاعر يسمى الطبراني أن يسبغ عليه من كرمه وجوده. وكان هذا الوالي يتخذ يحيى بن محمد التفري وزيراً له وعوناً وظهيراً، والصنوبري فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم، ويخلف هذا الوالي على حلب أحمد بن كيغلغ القائد المشهور في العصر ويظل بها نحو سنة ويعود إليها في سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى، وكان عونه في حكمه لحلب ابنه العباس، ويضفي عليهما مدائح كثيرة، ويبدو أن صلات العباس له كانت متوالية،ولذلك أكثر من مديحه. كما مدح محمود بن حبك الخراساني الذي حكم حلب بعد ولاية ابن كيغلغ الأولى عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضي مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلغ الثانية فنجده يمدح طريفاً السبكري حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابي سنة ٣٢٤ وجه إليه مدائحه. وتدخل حلب في حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه في حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبري مهنئاً له بشهر رمضان، وسرعان ما يستولى يأنس المؤنسى من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبري بمثل قوله[٣]:

هو الفارس المروي من الدم سيفه　　إذا لم يطق ري السيوف الفوارس

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدي من جهة أخرى، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصومه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة. وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد في سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيئان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة، وهو في أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة في الأرواح. ومنذ قرع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبري يقدم له مدائحه، وأعجب به سيف الدولة، فلم

---

[١] أنظر في هذا الوالي ومن بعده كتاب زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور سامي الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢ وما بعدها.

[٢] الديوان ص ١٥٦.

[٣] الديوان ص ١٩٢.

يكتف بما أجزل إليه من صلات غذ اتخذه أميناً لمكتبته[١]. ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد في ديوانه مديحاً لأخيه ناصر الدولة وآبائهما في الموصل، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ في التألق منذ أواخر القرن الثالث الهجري، ومع أنها كانت أسرة شيعية، وكان الصنوبري نفسه شيعياً، غير أنه ظل منحرفاً عنها، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال في بغداد واشتراك هذه الأسرة في الفتن التي كانت تتعاقب هناك، ولعل هذه الفتن نفسها هي التي جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين. على أنه كان كثير المقام بالرقة، وكان يمدح بعض ذوي الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر في مديح أمرائها الحمدانيين، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوان خصها بمديحهم.

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر في شأن تشيعه، فديوانه يمتلئ بمراث لآل البيت وللحسين خاصة، مما يؤذن بأنه كان متشيعاً حقاً، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى علي وأبنائه، على نح ما نرى في مثل قوله[٢]:

حباه بالوصية إذ حباه وهو ذو دنف

ويبدو أنه لم يكن غالياً في تشيعه، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الأثنى عشرية الذي كان قد أخذ ينتشر في بعض أركان العراق لعصره. وفي ديوانه قصيدة وجه بها إلى جعفر بن علي صاحب الزاب في المغرب الأوسط، وصلة جعفر وأبيه علي بالدعوة الإسماعيلية التي كانت قد أخذت في الذيوع بتلك الديار مشهورة، ولكن ينبغي ألا نفهم من ذلك أن الصنوبري كان على صلة بتلك الدعوة لا في مقرها الجديد بالمهدية في المغرب ولا في مقرها القديم بسلمية في الشام[٣]، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة[٤] الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقتلوهم قتلاً ذريعاً، كما مر بنا في غير هذا الموضع. وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام- حسب

---

[١] مطابع البدور للغزولي ١٧٦/٢ وآدم ميتز ص ٣٦٤.

[٢] الديوان ص ٣٩٨.

[٣] في ديوانه مديح لصديق هاشمي من سلمية هو أبو إسحق السلماني، ولكن ليس في مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية.

[٤] الديوان ص ٩٦.

أوامر الخليفة- بالرقة[١]، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة[٢]. ونرى الصنوبري حينئذ يمدحه بغير قصيدة[٣] ولو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتاً مثنياً عليه أو مادحاً. ونجده حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفراً الطيار كما يمدح العباس[٤] جد العباسيين. وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة علي بن أبي طالب، ولكنه أيضاً يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبي العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول[٥]:

أأبناء الخلافة من قريش وساسة أمر عالمنا المسوس

ألنتم من حزون الدهر حتى توهمت الحزون من الوعوس[٦]

وفي ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يرحل من حلب إلى الرقة على الفرات، حتى لتعد كأنما كانت موطنه الثاني وخاصة في أيام شبابه وإدمان على اللهو وخلعه للعذار. وكان لا يزال يؤم فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكي لجمال متنزهاته، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد براً وبحراً. وكثيراً ما كان يلم بمدينة الرها هناك وكان بها دكان وراق يسمى سعداً، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر. ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل في كل ما بينهما من البلدان، ولم يدع جواداً أو حامياً من حماة الأدب في تلك الأنحاء حتى قدم له مدائحه، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلابي من أهل حران بالموصل وابن كوجك في طرابلس وعلي بن سهل بن روح في حمص، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين، وكان منهم من يعني برواية الحديث النبوي مثل الحسن بن أحمد السبيعي وله كتاب "التبصرة في فضيلة العترة الطاهرة" ومثل القاضي أبي عبد الرحمن بن أخي الإمام ومثل علي بن محمد بن حمزة العباسي الهاشمي وكان له قصر منيف وبساتين في موضع يسمى فارث، وله فيه قصائد رائعة، ومثل أبي عبد الله الكرخي صاحب الخراج. وكثير هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمي وابنه أبي بكر وحفيده أبي عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين. وكان يختلط في كل البلدان التي ينزل فيها بشعرائها وأدبائها،

---

[١] النجوم الزاهرة ١٦٨/٣.

[٢] النجوم الزاهرة ١٩٠/٣.

[٣] الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩.

[٤] انظر الديوان ص ٣٣ .

[٥] الديوان ص ١٨٥.

[٦] الحزون: جمع حزن وهو الأرض الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة.

وكان من أقربهم إلى نفسه المعوج الرقي ويقال إنه أستاذه، وقد توفى سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها[١]:

يا سماء الشعر التي لي عليها　　كل يوم سماء دمع تفيض

كيف تجني الأفهام زهر المعاني　　بعد ما جف روضهن الأريض

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقة التي انعقدت بينه وبين كشاجم، ونظن ظناً أنها بدأت في الرقة، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة، فرعاه وصار من حاشيته، ثم صار من حاشية ابنه، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب، حتى نهاية حياته، وكان أصغر سناً من الصنوبري، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده في الشعر، فنسج على منواله، في وصف الرياض وفي الخمريات والغزل، وبينهما مداعبات ومعابثات واستعطافات كثيرة، وكأن الأستاذ دائماً كان حريصاً على رضا تلميذه. وتمنى التلميذ يوماً لو أصهر إلى أستاذه في ابنه[٢] له، ولعل عالماً لغوياً لم يحظ بصداقة الصنوبري كما حظي على بن سليمان الأخفش الصغير، وكان قد رحل عن ببغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ مولياً وجهه نحو حلب، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥. وفي هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمها الشباب للتثقف، وكان بينهم الصنوبري، فملك الأخفش عليه لبه، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصور فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم، بمثل قوله[٣]:

كرعنا منه في أبحـ　　ـر علم غير منزوفه

وطالعنا رياض العـ　　ـم بالآداب محفوفة

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه، فيكتب إلى الأخفش متشوقاً كما يقول، واصفاً فراقه لهذا الفردوس العلمي، متمنياً أو فاءت عليه ظلاله. وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عاماً يقضي معظمها في اللهو، ويفيق مرة من كئوسه في نحو الستين من حياته فيتمنى لو زهد في الدنيا ومتاعها الزائل معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وآن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه، يقول[٤]:

ألقت رداء اللهو عن عاتقي　　خمس وخمسون مضت واثنتان

---

[١] الديوان ص ٢٦٢.

[٢] ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص ٧٩.

[٣] الديوان ص ٣٧٧.

[٤] الديوان ص ٥٠٣.

وفي البيت ما يدل على أنه لم يمت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت[١]، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين، ولا ندرى هل هجر اللهو فعلاً كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة. وكان يعيش على ما يظهر في يسر دائماً، إذ نراه يذكر- كما يذكر ذلك كشاجم- أن له بحلب ضيعه وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين[٢]. وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده[٣].

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة، وعني أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفري برواية ديوانه وعنه رواه القاضي أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسي، واهتم به معاصره أبو بكر الصولي فجمعه ورتبه على حروف الهجاء في مائتي ورقة[٤]. ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ). على يد مواطن للصنوبري ترجم له ابن الفرضي في تاريخ[٥] علماء الأندلس، هو محمد بن العباس الحلبي، وعنه رواه اللغوي المشهور أبو بكر الزبيدي الإشبيلي، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس، ونرى ابن خير يذكر طرقها في فهرسته[٦]. ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف، أما الجزء الذي يسبقه والآخر الذي يلحقه فمفقودان، وحقق الجزء الباقي تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس والحق به ما وجده في المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبري ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبري ومعه فهارسه في نحو ٥٨٠ صفحة.

ومن يقرأ في شعر الصنوبري يلاحظ تواً أنه كان يعني بصناعة شعره وأنه أكب على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز، فهو أحياناً يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبي تمام، وأحياناً لا يذهب بعيداً في استخدام هذه الفنون على طريقة البحتري، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومي. وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال[٧]:

---

[١] أنظر حلب في معجم البلدان.

[٢] الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم ص ٧٤.

[٣] أنظر مثلاً ص ١٥٥ في الديوان .

[٤] الفهرست ص ٢٤٦.

[٥] تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١٤٠٢.

[٦] فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه ص ٤٠٨.

[٧] الديوان ص ٣٨٨.

ما حل بي منك وقت منصرفي؟ ما كنت إلا فريسة التلف

كم قال لي الشوق قف لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقف

بسطت خطوى كرهاً وقد قبضت رجلي عن الخطو شدة الكلف

فكان جسمي في زي منطلق وكان قلبي في زي منعطف

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حوله، والأبيات فيها غير قليل من التكلف في التعبير، وخاصة البيت الثاني، ومع ذلك تنم عن شاعرية جيدة، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع. وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلين فيه البارعين.

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عني بالمديح عناية واسعة، إذا اتخذ شعره متجراً له ومربحاً. فهو يقدمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعديهم، وكثيراً ما يصرح فيه بتنجز الوعود، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كيغلغ، وفيه يقول[1]:

وكيغلغي المجد يلفي مجده ثبت الدعائم محصد الأمراس

فرد الكيان فكفه من رحمة تسع الأنام وقلبه من باس

أعدى على صرف الليالي المعتدى وألان من طبع الزمان القاسي

يوماه ذا عيد وذا عرس وإن جلا عن الأعياد والأعراس

يأبى الحجاب وليس يحجب بشره عن أعين الندماء والجلاء

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ في أعدى والمعتدي والحجاب ويحجب، وفي الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعروس: وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبي تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه في اقتناص المقابلات والجناسات، فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه في الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمي عباس أسبغ عليه مديحه علي بن محمد بن حمزة الهاشمي، وكانت له- كما مر بنا- ضياع يتوسطها قصر في مكان يسمى فارث، وكان الصنوبري كثيراً ما ينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجواري ومن راح

---

[1] الديوان ص ١٦٠.

وخمر. كما يصور بستاناً حافلاً بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً[١]:

وأدق من رسطالس نظراً إذا ناظرته وأشف من بقراط

فكر غدت أقفال فكر كلها لكنهن مفاتح استنباط

والرثاء كثير في الديوان بصورة الثلاث من العزاء والتأبين والندب، فهو يعزي جعفر بن طاروف عن أخيه[٢] بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء، وقديماً عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ،ويعزي ابن حمزة الهاشمي العباسي صديقه عن زوجته[٣] وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع، ولا شرب أحد في دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة. وحزن طويلاً على صديقه أبى إسحاق السلماني حين وافاه القدر، فأبنه كثيراً واصفاً علمه وباكياً عليه بمثل قوله[٤]:

غاب أبو إسحق في الأرض بل غاب سراج الأرض في الأرض

بكته عيناي وفوق البكا حتى بكى بعض على بعض

ومن أروع مراثيه ندبه للنبي عليه السلام ولآله، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن علي واصفاً مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا، ويذكر حديثه له في غدير خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى، ويعرض مقتل الحسين وما صبه في نفوس المسلمين من جزع وكمد. ويخصه بمراث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات، ونراه في بعضها[٥] يصور سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم في مقتله، كما يصور سيرة أبيه على ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة، ويبكي مقتله في كربلاء بالقرب من الفرات، وهو ساغب، يريد بعض الماء، فتعلق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه، وتعول أم كلثوم ومن كان في ركبه من النساء عويلا مراً، ويندد بقاتليه وفظاعة جريمتهم وما يزال يئن لمصرع الحسين وهتك حرمة بمثل قوله[٦]:

يوم الحسين على الد ين كنت يوماً عسيرا

---

[١] الديوان ص ٣٢٧.

[٢] الديوان ص ١٠٦.

[٣] الديوان ص ٣٤١.

[٤] الديوان ص ٢٦٥.

[٥] أنظر الديوان ص ٢١٨.

[٦] الديوان ص ٩٥.

ملأت والله كرباً | يا كربلاء الصدورا
والفاطميون تقريـ | ـهم السيوف الطيورا
والفاطميات ينحر | ن بالدموع النحورا

ونراه في جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلام وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة، حتى يغفر الله له ذنوبه، وهو يضيف على شفاعة الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعة آل البيت، تشيعاً لهم، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم. ويلتقي في الديوان تفجعه على الحسين تفجعه على ابنته ليلى وحيدته كما يقول، ويندبها في كثير من القصائد والمقطوعات، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضاً وامتلأ قلب حسرات ولوعات محرقة، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشياً بعد وشي وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير، ويناجيها في رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم، وكيف تحول العيد بعدها لغيابها عنه مأتماً، ويبكيها في قصيدة ضادية، ويبكي معها أختها التي ماتت منه في الرقة، وفي ذلك يقول[١]:

لنا في الرقتين مضيض حزن | وفي حلب المضيض على المضيض

وظل جرحه في ليلى لا يرقأ، وكانت عروساً، فانقلبت الفرحة حزناً بل كارثة، وانقلب الرحيق حريقاً يصطلي الصنوبري بناره، ويتعذب عذاباً شديداً، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله:

يا ربة القبر المضيء الذي | يضيء ضوء الكوكب الساري
أشتاق رؤياك فآتي فلا | أرى سوى ترب وأحجار
قومي إلى دارك قد أنكرت | صبرك عنها أي إنكار
استوحشت دارك من أهلها | واستوحش الأهل من الدار

ومن أروع مراثيه مرثيته في أمه، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن أقدمهم، وهو في رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن، وقد استهله بقوله[٢]:

قد صوحت روضتي المونقه | وانتزعت دوحتي المورقة

---

(١) الديوان ص ٢٦٣.

(٢) الديوان ص ٤٤٢.

ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان يئن لها أنيناً متصلاً. وله مرثية طريفة لثوب أبلاه الدهر.

وهزته بل أثرت في نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم الملكي الكبرى لسنة ٣١٧ حين هجم القرامطة على الحجاج، وهم يهلون ويلبون يوم التروية فأعملوا فيهم السيوف في طرق مكة وفي البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره، حتى ليقال إنهم قتلوا منهم نحو عشرة آلاف، ونرى الصنوبري يبكيهم بكاء حاراً، هاتفاً[١]:

دموعهم تجري خشوعاً وخشية وأرواحهم تجري على البيض والسمر

وما غسلوا بالماء بل بدمائهم وما حنطوا إلا من الترب لا العطر

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً ولا ضوءاً ولا صوماً ولا حجاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام.

وله قصائد عدة في الفخر، وهو كثيراً ما يفخر فيه بقبائل قيس والقبائل المضرية عامة وبضبة قبيلته، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله. ونراه في قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بني العباس، إذ يقول في عد قومه لمناقبهم ومفاخرهم[٢]:

عدوا النبي الهاشمي ورهطه ووزيره الصديق والفاروقا

ولهم خلائف من بني العباس قد أعيوا جميع العالمين لحوقا

وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالياً في تشيعه، غذ يرتضى خلافة الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين، بل يمجدها ويشيد بها في قوة. وله أهاج كثيرة يملؤها بالفحش، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليلى التي رثاها طويلاً، ويبدو أنها توفيت عقب إعراسه بها، فعده طائر شؤم وطالع نحس بغيض، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله[٣]:

ألا يابن الجنيد اسمع وما أنت بذي سمع

على التفريق إملاك ك هدا لا على الجمع[٤]

على التعس على الغم على النحس على الفجع

على تحرق القلب على تحدر الدمع

---

[١] الديوان ص ٩٧.

[٢] الديوان ص ٤٠٤.

[٣] الديوان ص ٣٤٦.

[٤] الإملاك: الزواج .

وله قصيدة[١] في هجاء بعض الشمامسة، يصفه فيها بالشره في الأكل وببعض العادات القبيحة، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رضوى في ثقله، وبالشؤم حتى ليوازي اليوم في شؤمه، ومن قوله في ثقيل[٢]:

لو مر من ميل توهمته قد مر بين العين والحاجب

وفي ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه، وألطفها ما نظمه في استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم، وكأنا كأنهما روح واحدة في جسدين أو جسد واحد في ثوبين، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر، ووثقت بينهما من الصداقة مالا توثقه قرابة الدم، وله يقول متوداً مستعطفاً[٣]:

أخ لي عاد من بعد اجتنابه وفرق بين قلبي واكتئابه

وخاطبني فخلت بأن زهر الـ ربي الموشي يجني من خطابه

فقرب بين أجفاني وغمضي وباعد بين دمعي وانسكابه

أتاني أرى منطقه فعفى على ما ذقته من طعم صابه[٤]

وله غزليات كثيرة، غير أن كثيراً منها في الغلمان، وحاولنا- في غير هذا الموضع- أن نخفف من حدة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبري وغيره، فقلنا إن كثيراً من شعر الغلمان، إن لم يكن جله، كان يقال على سبيل الدعابة والتندير في أثناء السكر وشرب الخمر. وله غزل في فتيات ونساء كثيرات، ويغلب عليه التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة، ومن غزلياته الطريفة قوله[٥]:

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحدا وكان الهوا مزحاً فصار الهوى جداً

وقد كنت جلداً ثم أوهنني الهوى وهذا الهوا ما زال يستوهن الجلدا

فلا تعجبي من غلب ضعفك قوتي فكم من ظباء في الهوى غلبت أسداً

جرى حبكم مجرى حياتي ففقدكم كفقد حياتي لا رأيت لكم فقدا

---

[١] الديوان ص ٢٠٠.

[٢] الديوان ص ٤٥٩.

[٣] الديوان ص ٤٥٧.

[٤] الأرى: الشهد أو عسل النحل . والصاب: العلقم .

[٥] الديوان ص ٤٧٢.

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف، حين يحول الهوى من المزح إلى الجد وحين يصبح واهناً بعد أن كان جلداً، وحين يغلب الضعف القوة، كل ذلك ليأتي بالطباق. وأطراف من هذه المقطوعات مقطوعته التالية[١]:

لا النوم أدرى به ولا الأرق ... يدري بهذين من به رمق

إن دموعي من طول ما استبقت ... كلت فما تستطيع تستبق

ولي مليك لم تبد صورته ... مذ كان إلا صلت له الحدق

نويت تقبيل نار وجنته ... وخفت أدنو منها فأحترق

والقطعة مع ما يترقرق فيها من جمال يتعمقها التكلف، على نحو ما يلاحظ في البيت الثاني وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه، وتعبيره عن عبادته لمليكه بصلاة الحدق فيه أيضاً غير قليل من التكلف، وواضح أن الشطر الأول في البيت الأخير مجلوب اجتلاباً ليهيئ مكاناً للشطر الأخير. وله مقطوعة نظمها في فتاة مسيحية، تمضي على هذا النمط[٢]:

لا ومكان الصليب في النحر ... منك ومجرى الزنار في الخصر

والحلق المستدير من سبج ... على الجبين المصوغ من در[٣]

وسكر أجفانك التي حلف الـ ... فتور ألا تفيق من سكر

واقحوان بفيك منتظم ... على شبيه الغدير من خمر

ما صبر المشوق لي فأصبر يا ... من حسنه فيه قلة الصبر

يكثر الصنوبري من الحديث عن الخمر ووصف كئوسها وسقاتها ونداماها ومجالسها، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات. وقد يضع نعت الخمر في مقدمة بعض مدائحه، مضيفاً غليها نعت بعض ليالي الأنس وما كان في مجالسها من غناء وقيان وجوار معقربات الأصداغ. وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها. وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر، فهو ربيع الدنيا وهي ربيع الفرح والسرور في رأيه. ويقرنا أيضاً دائماً

---

[١] الديوان ص ٤٣٦.

[٢] الديوان ص ٦٣.

[٣] السبج: قطع الشعر المرسلة على الجبين .

إلى الأمطار، ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره في الطبيعة، وعرف له القدماء ذلك فقالا إنه أول من تغني بالثلجيات على شاكلة قوله[١]:

ذهب كئوسك يا غلا م فإن ذا يوم مفضض

الجو يجلي في البيا ض وفي حلي الدر يعرض

أظننت ذا ثلجاً وذا ورد على الأغصان ينفض

ورد الربيع ملون والورد في كانون أبيض

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس، الذي يكسو الأشجار ثياباً بيضاء، وكأنها تجلي فيها، فهو يوم من أيام عرسها، وهو يعب فيه من كئوس الخمر المذهبة الصافية، فرحاً بمنظر الثلج على الأغصان، وكأنما قطعه في عينه ورود تنفض على الأغصان وعلى الأرض، ورود بيضاء، تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة. وكان أكثر ما يفرغ لخمره ولهوه ولذاته في الرقة، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها متنزهاتها على جداول البليخ والهنى والمري. وله رائية[٢] يصور فيها نزهة في بساتين تلك الجداول وفي دير زكي الذي كان يجاورها، ذاكراً قراها التي كان يتنقل بينها من مثل هرقلة والصالحية وبطياس والرافقة وما كان يمتد في المروج هناك من أنوار وأزهار، ويصف عكوفه على الخمر وسقاتها من الغلمان والجواري، كما يصف صيده بالكلاب هناك من الغزلان، وكذلك صيده بالجوارح من الصقور والبزاة للطير من مختلف الألوان، ويصور من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة. وله وراء ذلك أشعار كثيرة في دير زكي ونزهة في بساتينه وخلعه مع بعض رفاقه للعذار فيه ولهوهم مع بعض فتياته، على نحو ما يحدثنا في قوله[٣]:

لو على الدير عجت يوماً لألهتـ ك فنون وأطربتك فنون

كم غزال في كفه الورد مبذو ل وفي الخد منه ورد مصون

ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السن بعد الخمسين، وربما كان لموت ابنته ليلى أثر في ذلك، فقد صحت من خمره ولهوه على موتها في سن البراعم الغضة، ولعل ذلك ما عله يعلن أنه كف عن النبيذ في حزم وعزم أكيد، حتى ليقول[٤]:

---

[١] الديوان ص ٢٥٥.

[٢] الديوان ص ٥٤.

[٣] الديوان ص ٤٩٥.

[٤] الديوان ص ٢٥٨.

كنت أحب النبيذ جداً فصار حبي النبيذ بغضاً

فلست أرضاه لي شراباً والحمد لله لست أرضى

وينظم بعض أشعار في الزهد، وليه في قصيدة[١] طويلة، يتحدث فيها عن الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الآثام أن يرعوي ويكف عن السير في طريق اللهو ودروبه. ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية في الحياة، وهو الباب الذي يسمى في الشعر وأغراضه باسم باب الأدب، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة، من مثل قوله في إحدى قصائده التي خصها بهذا الباب[٢]:

أضاع الحزم من أمسى مطيعاً طوال الدهر ذا حزم مضاع

وأكثر ما استطعت الحلم إني رأيت الحلم من كرم الطباع

ولا تتبع أخا سفه ودعه وكن للحر – دهرك – ذا اتباع

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسي في شعره، وهو وصف الطبيعة التي عاش لها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع في العربية. وقد مضى معاصروه من حوله ومن خلفهم في العصور التالية لا في المشرق وحده، بل أيضاً في المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه، حتى ضرب المثل بروضياته. وحقاً كان ابن الرومي مشغوفاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع، ولكنه لم يعش لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورد والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبري. فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة، عاش يتغذى خياله وروحه منها، واصفاً لحدائقها وبساتينها ورياضها، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكده من حياته، وقديماً عاش تلك المعيشة أبو نواس، ولكن في الصهباء وكئوسها ودنانها، مما جعله يعلي وصفها على وصف الأطلال والديار العافية، وبالمثل نجد الصنوبري يعلى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال، في مثل قوله[٣]:

وصف الرياض كفاني أن أقيم على وصف الطلول فهل في ذاك من باس

يا واصف الروض مشغولاً بذلك عن منازل أوحشت من بعد إيناس

قل للذي لام فيه هل ترى كلفاً بأملح الروض إلا أملح الناس

---

[١] الديوان ص ٣٩٣.

[٢] الديوان ص ٣٢٣.

[٣] الديوان ص ١٨١.

فهو يعلي وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال، وكأنه أول تعبير قوي عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابة. ورأيناه في غزله لا يهيم بالمرأة وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة، وشغلته بجمالها الهاجع في الكون عن كل شيء، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته، وفي كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتتابع أنفاسه، ويصور ذلك في قصيدة الأبيات السالفة قائلاً عن رفاق له في أحد البساتين:

ما كدت أكتمهم وجدى بنرجسه إلا استدلوا على وجدي بأنفاسي

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد، وكان يشتد به هذا الوجد في الربيع، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار، وتتغنى الطيور على الأشجار، وكأنما تتحول الرياض في عينيه إلى أعياد وأعراس، حتى ليقول[١]:

ما الدهر غلا الربيع المستنير إذا أتى الربيع أتاك النور والنور[٢]

فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور[٣]

تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها فالأرض ضاحكة والطير مسرور

حيث التفت فقمري وفاختة يغنيان وشفنين وزرزور[٤]

إذا الهزاران فيه صوتاً فهما السـ ـر ناي والناي بل عود وطنبور[٥]

فالربيع كأنه دكان مليء بالجواهر، والدنيا مليئة بالبشر والسرور والطيور تغني ويشدو عندليبان بصوتهما الساحر، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألبان بأغانيها الجملية. ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم في الربيع ليروا مفاتنه ويهتف بصواحبه من النساء أن يتأملن في جماله الذي يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً، يقول[٦]:

[٧]يا ريم قومي الآن ويحك فانظري ما للربي قد أظهرت أعجابها()

كانت محاسن وجهها محجوبة فالآن قد كشف الربيع حجابها

---

[١] الديوان ص ٤٢.

[٢] النور: الزهر .

[٣] الفيروزج: الفيروز وهو حجر كريم أخضر اللون.

[٤] القمري والفاختة: من الحمام ، والشفنين اليمام، والزرزور ، من العصافير.

[٥] السرناي والناي: من آلات الطرب.

[٦] الديوان ص ٤٥٤ .

[٧] أعجاب: جمع عجب.

ورد بدا يحكي الخدود ونرجس يحكي العيون إذا رأت أحبابها
وكأن خرمه البديع وقد بدا[١] روس الطواوس إذ تدير رقابها
والسرو تحسبه العيون غوانياً[٢] قد شمرت عن سوقها أثوابها

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها، فبدت خدودها وعيونها الرانية رءوسها الزاهية، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها تريد الرقص في هذا الجو العطر البهيج. ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار، ولم يكن زهر يملك لبه كما كان يملكه زهر النرجس، وهو أعظم الأزهار في الشام وأكثرها انتشاراً فيه، وقد تغنى به طويلاً على نحو ما نرى في قوله[٣]:

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن وسط المجلس
در تشقق عن يواقيت على قضب الزمرد فوق بسط السندس
أجفان كافور حبين بأعين من زعفران ناعمات الملمس

وهو في كثير من وصفه للنرجس يستهدي بابن الرومي، غذ كان معجباً به مثله، ومر بنا في غير هذا الموضع أن ابن الرومي أدار مناظرة في شعره بينه وبين الورد، وقف فيها مع النرجس مورداً من الحجج ما يؤكد فضله على الورد وأنه يفوقه حسناً وجمالاً، وكأنما أراد الصنوبري أن يعارضه فنظم مقطوعة[٤] نصر فيها الورد، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار، حاول فيها أن ينتصر للنرجس، وفيها يقول[٥]:

خجل الورد حين لاحظه النر جس من حسنه وغار البهار[٦]
فعلت ذاك حمرة وعلت ذا حيرة واعترى البهار اصفرار
وغدا الأقحوان يضحك عجباً عن ثنايا لثاتهن نضار[٧]

---

[١] الخرم: زهر بنفسجي زاء.
[٢] السوق: السيقان جمع ساق.
[٣] الديوان ص ١٨٠.
[٤] الديوان ص ٤٩٨.
[٥] الديوان ص ٧٨.
[٦] البهار: نبت أصفر.
[٧] الأقحوان: زهر أبيض في وسطه اصفرار وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان.

عندها أبرز الشقيق خدوداً صار فيها من لطمه آثار[١]

وأضر السقام بالياسمين الـ ـغض حتى أذابه الإضرار

ويمضي الصنوبري على هذا النمط واصفاً القتال بين النرجس والأزهار المختلفة، وكل منها يبوء بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة. وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة، وله في دمشق والرقة قصائد بديعة، وأبدع منها قصيدته في موطنه حلب، وهي أربعة أبيات ومئة استهلها بالتشبيب، ثم أخذ في وصف متنزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول[٢]:

حبذا جامعها الجا مع للنفس تقاها

ومراقي منبر أعـ ـظم شيء مرتقاها

وذرى مئذنة طا لت ذري النجم ذراها

قبة أبدع بانيـ ـها بناء إذ بناها

لو رآها مبتني قبـ ـة كسرى ما بناها

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية، ووصف الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفاً رائعاً، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحاً بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع. وكان طبيعياً أن يصف الفستق أعظم نقل تشتهر به حلب وفيه يقول[٣]:

زبرجدة ملفوفة في حريرة مضمنة دراً مغشى بياقوت

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء، ولذلك كان يحسن وصف أي شيء وصفاً دقيقاً، ومما اشتهر به وعرف له وصفه لديك الصباح الذي ينبهه وينبه الرفاق معه لخمر الصباح التي تسمى بالصبوح، وكان الشعراء قبله يلمون به أحياناً، أما هو فخصه بمقطوعه طريفة وفيها يقول[٤]:

---

[١] الشقيق: ورد كبير أحمر .

[٢] الديوان ص ٥٠٦.

[٣] الديوان ص ٤٦٤.

[٤] الديوان ص ٤٧٣.

مغرد الليل ما يألوك تغريداً مل الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا[١]

لما تطرب هز العطف من طرب ومد للصوت- لما مده- الجيدا

كلابس مطرفاً مرخ جوانبه تضاحك البيض من أطرافه السودا[٢]

ران بفصى عقيق يدركان له من حدة فيهما ما ليس محدودا

حالي المقلد لو قيست قلادته بالورد قصر عنها الورد توريدا

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقنص، وخاصة في الرقة، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالجوار طير الماء، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك، وكل ذلك نجد وصفه في أشعاره، وله طائية[٣] يصف فيها جواده الذي يركبه للصيد وقد جن جنونه من السرعة حتى لكأنه حاقد على الفضاء، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذي سيطلقه على بط الماء أو طيره، وفيه يقول:

كأنما مخلبه لأذن الطير قرط

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سهم يخرج عن قوس، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتي بصيده. ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد، مصوراً سرعتها هي الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان، وفيها يقول:

موكلات بالفلا يطوينها طي البسط

كأنما آذانه ن سوسن لم يجن قط

كأنما أجفانها عن قطع الجمر تعط[٤]

وساعدته حاسته التصويرية على أن يصور كل ما حوله وكل ما يقع عليه نظره، من ذلك تصويره للجرذان والهر[٥]، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما، فالهر أحدب الظهر منتصب الرأس، والجرذان دقيقة الخراطيم والآذان والأذناب حادة الأظفار والأنياب، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شيء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب، والهر لها بالمرصاد، يقول:

---

(١) الكرى: النوم .

(٢) المطرف: ثوب من حرير مخطط.

(٣) الديوان ص ٢٨٣.

(٤) تمط: تشق .

(٥) الديوان ص ٤٥١.

ناصب طرفه إزاء الزوايا وإزاء السوق والأبواب

يسحب الصيد في اقل من اللمـ ـح ولو كان صيده في السحاب

ويصور لنا فرحه به حتى لقد البسه قرطاً وقلادة، وخضبه بالحناء، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيساً، تمشي بأقدامها الحمراء على عناب، وكل ذلك فرح بهذا الليث الذي قضى له على الجرذان قضاءً مبرماً. ومن تصاويره قوله في شمعة[1]:

مجدولة في قدها تحكي لنا قد الأسل

كأنها عمر الفتى والنار فيها كالأجل

وهي صورة طريفة، ولعل في كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبري وأنه كان خيالاً خالقاً، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجاباً، وكان إلى ذلك شغوفاً بالرياض والطبيعة شغفاً ملك عليه حواسه، حتى اصبح فيه قدوة للعصور التالية.

---

[1] الديوان ص ٤٨٥. والأسل: الرماح .